

وتقدم منه الموت صارخاً به : بل ادفني انت وخلصني من هذا العذاب ! ... اريد
ان اموت . اريد ان اموت .
في الصباح ، وجدت جثة الطفل وقد جلده البرد الى جانب شجرة في آخر الزقاق
الموصل لبيته ولم تكن على الجثة أية آثار للعنف ... كما وجدت جثة حفار القبور العجوز
الذي أرهق كثيراً في الاونة الاخيرة ...
وكانت العاصفة قد قدقت ببعض القبور الى الشارع المجاور ، وصار الرصيف قبراً
كبيراً مفتوحاً ..

* * *

كابوس ١١٨

استيقظت متعبة ، أكثر تعباً مما لو بقيت صاحبة طوال الليل أحفر قبوراً ..
آد كوايس كوايس
تنبت داخل رأسي وتتسلق جدران روحي كنبات اسطوري شرير .. (ام تراها
تقع خارجه ايضاً ؟) ...
آه كوايس كوايس عن « السيد الموت » ... كما لو أنه مر بيبي .. وحلقي جاف
كما لو أنه مسّ صدري .. أنهض نحو المطبخ . الفجر لما ينبت بعد تماماً على صخور
الليل .. خيط مريض من ضوء رمادي يلف المرثيات كلها ، كأنه لون أصوات الرصاص
المتقطع الذي لا يكف بعد ... كأنه لون الزمن الآتي ، ريشما يطلع الفجر . شربت جرعة
من الماء المغلي (لتعقيمه بعد انقطاع مياه الشرب تماماً) وكانت تطفو على وجهه سحابة
من الكلس المقرقة الطعم ... بذلت جهداً كي لا يردّ جسدي ما شربت بتقزز ... كنت
مرهقة ... والجوع قد بدأ يؤثر في جسدي المشرق بالصحة عادة ... قررت العودة إلى
فراشي .. لم أكن نشيطة بالقدر الذي يمكنني ان اصعد الى بيتي بالطابق الثالث وأنفقده
وأرى آثار أقدام الرصاص والقذائف ، بالضبط ، أنفق المكتبة ، أهم ما لدي .. ولم
اكن متوهجة بما فيه الكفاية لاغمر بالوقوف قرب النافذة لاشم الياسمين ... كانت
رائحة الحريق تملأ المكان وحدثت ان فندق « الهوليداي إن » يتابع احتراقه .. في طريق
عودتي من المطبخ لمحت العم فؤاد جالساً على مقعده بالردهة ... وحوله أكوام الفضيات
التي لفها بعناية ، والتحف من (سيفر) و (جاليه) وغيرها من المزهريات التي بدهشني

أن ثمن القطعة الواحدة منها يفوق ثمن مكتبة ! ... كنت أكثر تعباً من أن ألقى عليه نحية الصباح ، . لو ... لو لم أشعر بذلك الحضور الغامض الخفي ... برائحة تشمها الروح لا الحواس ... لا ... لم تكن جلسته برأسه المرمي على المقعد ، ولا جسده المتصلب . كان هنالك نور مظلم يشع من حضوره ، أراه بمسامي لا بعيني ، أراه بجواسي السرية التي لم يكشف العلم عنها بعد والتي يعيها البسطاء أكثر مما يعترف بها المجازون في العلوم ... كالمسحورة مضيت نحوه ، ولم تكن أية مفاجأة لي أن أجده ميتاً ... لقد عرفت ذلك وأنا في الردهة المجاورة ، حتى قبل أن أمس يده المزركة المتجلدة ، وحتى قبل أن تروعي نظرة عينيه السحيقة اللامبالية ... لقد حدثت ذلك ... لقد التقطت كهارب ذلك ... لقد وعيته ولا أدري كيف .. تأملته وتحفه تحيط به ، وبدا لي مثل فزاع طيور يحرس حقلاً من الرماد ...

كان يرتدي ثوبه العثماني الرسمي العتيق ، وقد ملأ صدره بنياشينه العتيقة كأنه في انتظار زائر مهم ... ولم يخلف الزائر موعده ...

وسقطت في المقعد المواجه له . لم أكن خائفة . لم أكن حزينة . شعرت بما أحس به عادة حينما أجلس إليه . أو الى جميع الناس الغرباء عن روحي أو الذين اغتربوا عنها بعد وصال .. كانت جلسة مريحة. لم يقل شيئاً وبالتالي لم أكن مضطرة للرد عليه . لم يقل الكلمات التقليدية الخاوية من أي تواصل انساني ، ولكن يفترض قولها من باب « الحوار المهذب » وبالتالي لم يكن علي أن ارد باللغة نفسها التي تعذبني عادة وتثير تقززي ... كنت أستطيع أن أجلس إليه دون أن اضطر لارتداء ولو قناع واحد مقابل عشرات الأقنعة التي ألف ارتدائها ... للمرة الاولى شعرت بالراحة معه ، وبالأحرى بالراحة لأنني كنت دوماً بدونه ولكن فيما مضى كان علي كل منا احتمال صحبة الآخر برشوته ببعض الكليشيات .. بل انه صار يوسعي أن يحدثه الآن دون أن أخشى سوء فهمه أو عدم فهمه أو سخريته أو غضبه أو حماسه أو لا مبالاته ...

كنا متقابلين . متشابهين قليلاً . ربما كان الفرق الوحيد بيننا هو انه لم يعد جائعاً ، ولم يعد يوسعه ايضاً ان يتعلم شيئاً جديداً ... ولكن المقارنة بيننا لم تكن مهمة ... المهم هو تلك الهدنة المعقودة بيننا للمرة الاولى . هدنة حقيقية لا مهادنة .. وها انا استريح الى صحبته أكثر مما استريح الى صحبة الكثيرين من معارفي ! .. وها أنا أحدثه بطلاقة ،

انا المرأة الوحيدة رغم زحامها ، المنطوية على جراح قلبها رغم كثرة الحاملين للقطن والشاش حولها ... منذ انطفأ يوسف ، انطفأ الحوار في عالمي .. كان جمرة الحنان الوحيدة التي ادفأت صقيع غربتي ، وجعلت سلحفاة روحي تخرج من صدفتها اليه رويداً رويداً حتى تخلعها تماماً ...

قلت للعم فؤاد اشياء كثيرة .. بسطت مخاوفي وآمالي واحزاني له ولم اخف عنه اي سر ...

قلت له ان الكثيرين سألو عي وقلقوا من اجلي ، ولكن أحداً لم يسأل عني (حقاً) او يهيمه مصيري (حقاً) بمعنى ان يشاركني موتي او حياتي او مخاوفي في دوامة الرصاص ... وان المشاركة مهما بلغت عاجزة عن اختراق جدار العزلة الانساني الذي تبرزه الحرب الالهية للعيان بعد ان تعريه من ورود المجالات وعرائس اللطف الاعتيادي الاليف ... آه يا عم فؤاد ... ليس الرصاص وحده ما يخيفني ، وانما تلك العزلة الداخلية المروعة ، كأن كل ما يربطني بالآخرين قد انكسر حقاً ونهائياً والى الابد ... هل تفهمني يا عم فؤاد ؟ ... لا بد وانك تفهمني ما دام كل ما يربطك بالآخرين انت ايضاً قد انكسر حقاً ونهائياً والى الابد ! ... تابعت دون ان انتظر منه رداً : أحد طرفي الذين يتقاتلون يا عم فؤاد حول بيتي كدت ذات يوم أقتل لأجلهم .. لقد كان انتمائي الحزبي الوحيد القصير الأمد لهم . كنت منهم – وما ازال فكرياً – قبل ان اقرر اني لا اصلح للعمل الحزبي لانني أولاً كاتبة .. والكتابة أداتي الحقيقية والاولى والاساسية ... واول مبدأ حزبي هو : نفذ ثم ناقش ... واول مبدأ فكري : هو ناقش ثم نفذ وباقل قدر ممكن من العنف ! .. الفنان هو (قواد) للحقيقة ! .. انه يروجها بكل وسيلة ممكنة ، لكنه عاجز عن الزواج بها زواجاً سرياً ! ... الكاتب جمهورية مستقلة . حزب قائم بذاته وعليه الاختيار بين الانتماء لفننه او لحزبه .. لا تضارب بين الانتماءين ؟ ربما هذا صحيح نظرياً ... ولكن لا بد ان تمر ولو لحظة حيرة واحدة ، لحظة غموض واحدة لحظة رفض (حادس) او (حدسي) واحدة ، لحظة تضارب واحدة وبالتالي لحظة خيانة واحدة للذات ، وهي كافية لقتل برعم الموهبة نهائياً .

ومع ذلك فإن الأمر يبدو لي هزلياً.. فقد اقتل برصاص الذين نذرت عمري لاهدافهم كما قد اقتل برصاص الطرف الآخر .. فالرصاص لا يدقق كثيراً في بطاقات تحقيق

الشخصية ! .. ان مأساة الحرب لا في بشاعتها فحسب ، بل في غيابها ... حيث يهطل الموت كما يهطل المطر دون تمييز بين حقل القمح الذي هو بحاجة اليه وحقل القطن الذي سيقتله ... ان مأساة فنانة مثلي مع الحزب هو ان الحزب - اي حزب - مضطر لاعتماد العنف وسيلة لتبديل الاوضاع ، ومع قناعتي احياناً بأنه لا وسيلة أخرى ، إلا اني في الوقت ذاته لست على استعداد لأن أفلسف العنف لاحد ...

تناقض ؟ بالضبط . انها مأساتي . اريد ان تشرق الشمس دون ان اضطر الى ذبح حنجرة الديك لأثبت له ان الشمس ستشرق على اية حال ولو لم يصبح ! قد تكون هذه هي الوسيلة ، حيدة لا ثبات ذلك لكن لا يسعني الا تكريس حياتي للتفتيش عن وسائل اخرى ... وكما قلت لك يا عم فؤاد ، إن مصرع أي رجل أو أي حياة هي كارثة كونية في نظري . ثم ان الوعظ ليس طريقاً للنصر ولا للتوعية . والاحزاب تحب الوعظ . انها تفضل خطيباً رديئاً جماهيرياً على فنان جيد صامت ، والفنان يختار الصمت احياناً كي لا ينطق ككفرأ حتى ولو صمت دهرأ . الفنان يوقت موعد ولادة اعماله لا البلاغات الحزبية . ومع ذلك ، فالحياد في عالم العنف جريمة أيضاً . إنه مساعدة لأحد الطرفين على تصفية الطرف الآخر . ثم ان الانضمام إلى أحد الطرفين يجعل الموت أقل مرارة . الموت الجماعي أسهل من المواجهة الفردية للموت ، دونما طقوس وتهليل جماعي وهستيريا تصعيدية وتهويمات بطولية ...

لكنني لا أستطيع أن أبرر العنف لمجرد أنني لا أريد أن أموت وحيدة ! .. إنني أفكر بالآلاف من العزل أمثالي .. الذين يتعذبون في هذه اللحظة مثلي والموت يتهدهدهم ، ويقبعون تحت مطر الرصاص بصمت عاجز وهم يتساءلون : إلى أي حد يعتبر رفض العنف جريمة ؟ وهل هي جريمة تستحق الموت بعنف ؟ ...

ألا يمكن لمخاض الفرحة ان يكون عملاً واعياً إنسانياً ؟ وهل دوامة العنف وحده هي مخاض الفرحة الآتي ؟

ثم انني كفنانة ولاؤها الأول للحقيقة ، لا أملك إلا أن أقف ضد « الظلم » سواء مارسه الفريق الذي انتمي إليه أو الفريق الذي اقف ضده فكرياً وإنسانياً . والظلم بمفهومي قد يكون غير « الظلم » بمفهوم الفريق الذي انتمي اليه خصوصاً في زمن الحرب ، حين تصير عبارة « الظلم » مطاطة . اما بالنسبة إليّ ، فالقيم الاخلاقية ليست موضع مساومة

ولا يجوز ان تصير مطاطة تحت اي ظرف من الظروف .. إنني أياً كانت الظروف أظل مصرة على ان « من قتل نفساً بغير نفس او فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » - كتاب القرآن - سورة المائدة .

وكنت انحدث واتحدث .. والعم فؤاد ينصت بحياء شفاف يقع بين الود واللامبالاة .. تابعت : ماذا يجدي موتي ؟ من يستفيد من دخول رصاصة ما خطأ من النافذة إلى نافذة دماغي ؟ لو كنت سأموت لأثبت شيئاً لرضيت ، ثم لماذا أموت لأثبت اي شيء ؟ بوسعي ان أفعل ذلك أكثر ببقائي في قيد الحياة . هذا طبعاً يلغي مبدأ (الشهداء) ... هذا المبدأ الذي اخترعته (حضارة الموت) لترغب الناس بالموت ولتخدر غريزتهم الطبيعية للحياة .. لا ... لست خجلة من حيي للحياة .. ولن أبرر لنفسي رفضي للموت كما لو كانت الرغبة في الحياة خطيئة أو جريمة ... أجل ! إنها خطيئة وجريمة في مجتمع حضارة الموت وعبادة الموت . انني أكره « الموت للموت » واذا كان لا بد من ان اختار موتي فسيكون موتاً لأجل الحياة وان كنت أفضل « الحياة لأجل الحياة » .. يوسف كان يكره ان أقول له : « احبك حتى الموت » .. كان يصبر على ان اقول : احبك حتى الحياة ... بالمناسبة يا عم فؤاد .. ما زلت احب يوسف . ما زلت اقيم طقوس « وثنية الموت » وأللم أوراقه وصوره وتذكاراته وأحرص عليها وهذا يتنافى مع قناعاتي العقلية ... لكن التناقض في جوهر الطبيعة البشرية ، والوصول إلى التفاهم الداخلي والتناغم الذاتي والانسجام مع الوجود الكلي الواحد هو غاية ما يسعى اليه الفرد ويتمناه ... وانا قد أكون في أول الدرب لكنني على الأقل أعني وجودها وضرورة التوجه في مسالكها ومسارها ... ما زلت جالسة في مقعدي ... والعم فؤاد جالس في مقعده المقابل ، لم يتحرك لكنه ينظر باتجاهي ، وعبري ! ...

نهضت بعد ان استرحت بعض الشيء .. وشكرت العم فؤاد على حسن انصاته ... وقلت له ان الوقت ما زال مبكراً جداً وانني سأعود إلى فراشي لأنام قليلاً ... وانني انصح به بان يفعل الشيء ذاته ! ...

وحين طمرت نفسي بالأغطية ، أحسست بما يشبه الراحة المتعبة ، كمؤمن عاد تواء من الاعتراف لدى كاهنه حاملاً صك الغفران ! ... وتقدمت مني أمواج النوم ترفعني ، تغرقني بذلك الاحساس الممتع بالتلاشي الذي يأتيك قبل النوم مباشرة .. مدها العالي

يرفعني عن أرض الصحو ، ثم أتحسر مع جزرها إلى بحار ما وراء الصحو ... لتخلفني
من جديد على الشاطئ الآخر ، شاطئ الأحلام والكوايس ! ...

* * *

كابوس ١١٩

« لم يعد الزحام يطاق » .. هكذا كان صابر يردد لنفسه بينما هو يستلم شحنة جديدة
من الجثث ..

« لم يعد الزحام يطاق » ، وقد افرغت الشاحنة أمامه كوماً جديدة منها ، بصفته
المشرف على البراد الحكومي لحفظ الجثث اي حارس « المقبرة المثلجة » ..
« لم يعد الزحام يطاق » والجثث المشوهة المقطعة الأعضاء تحيط به ، وهو يتعثر بها أنى اتجه ..
صحيح ان الزحام لا يضايقه عادة .. بل انه يرحب بأن تكون الأماكن التي يشرف
عليها مكتملة العدد ، لكن ، ماذا بوسعه ان يفعل والبراد لا يتسع لأكثر من ٣٦ جثة ؟

* * *

حين كان يعمل قاطعاً للتذاكر في السينما ، كان يسعده ان تمتلئ المقاعد بالزبائن ،
وان يأتي أشخاص إضافيون يعتذر منهم « لم تبق محلات . آسف .. الصالة كومبليه » .
كان ذلك يشعره بان عمله بخير ، والسينما بخير ، والدنيا بخير ..
ولكن المشكلة ان براد الجثث قد امتلأ ولم تبق أية مقاعد ، لا في (صالة) البراد ولا
في (البلكون) ولا في مقاعد (القوتوي كلوب) . والجثث تتقاطر عليه بالملئات طالبة
باصرار مقاعد لها ..

وحين يعتذر منها : « لم تبق محلات . نبراد (كومبليه) ومكتمل العدد » ، لا
تذهب لشأنها كزبائن السينما ، وانما كانت تظل مكومة أمامه بأحشائها المتدلية ، ومصرة
على الدخول إلى البراد قبل ان تتعفن ، صارخة في وجهه بصوت كصفير الريح ...
ماذا يفعل ويروت تقذفه كل صباح بكوم من الجثث ، والجثث تصيح به طالبة
انقاذها من الجراثيم التي بدأت تتكاثر فيها وتهدها بالعفن والتآكل ، راجية ومهددة
من أجل إدخالها إلى البراد ، كما تصرخ قبيلة من المحروقين من أجل إدخالها إلى غرفة
الطوارئ بمستشفى ...

* * *

صرخت به جثة : انا ابن اخت الوزير (...). المسلم السني واذا لم تدخلني إلى البراد سيقطع خالي رزقك . صرخت به جثة اخرى : وانا ابن اخت الوزير (...). المسيحي الماروني ، واذا لم تدخلني إلى البراد ، تكون قد كسرت ميزان الدولة ، وقاعدة (٦ - ٦ مكرر) ، ونظام التوازن بين الطوائف . واختيار الجثث (لمقاعد) البراد وفقاً للتقسيم الطائفي ... وسيقطع خالي رقبتك ...

صرخت جثة : وانا شعبي ..

صرخت أخرى : وانا درزي .. وستقطع روحي المتقمصة نسلك .

صرخ ثالث : وانا ارثوذكسي ..

صرخ رابع : وانا يهودي من وادي ابو جميل .. من « الأقليات المضطهدة » وسأضطهدك واصيبك بعقدة الذنب إذا لم تدخلني إلى البراد ، وأريد شقة ناحية الكنيس ! ..

صرخت جثة خامسة : انا من عشيرة (...). الكبيرة ، واذا لم تدخل لي مكان (فوتوي كلوب) في البراد ، سيلاحقك اخوتي وأبناء عمي طلباً للثأر ، وسيلاحق أحفادي أحفادك إلى الأبد ..

صرخت جثة سادسة : انا ألي نائب ورقم سيارته أزرق اللون ، ابعدوا جثثكم عن طريقي والا أعيد قتلكم جميعاً مرة أخرى على يدي ميليشيا اي . وانت يا صابر ادخلني فوراً إلى البراد والا ... انت تعرف ماذا والا ! ...

صرخت جثة سابعة مبسوطة الصوت : وانا المطرب الشهير (...). ، واذا لم تدخلني إلى البراد وتحفظ حنجرتي المخملية ، سيقال ان لبنان ليس بلد الاشعاع ، وأنه يضطهد المواهب والعباقرة ...

صرخت جثة ثامنة بحجم الديناصور : وانا القبضاي مرافق (الزعيم) فلان بيك ابن بيك ابن بيك ابن آدم عليه السلام . واذا لم أحصل على مقعد في البراد فسوف تهاجم المافيا التي (اخصها) برادكم وتنهبه وتبيع لحوم الجثث بالجملة والمفرق ، بعد أن تقتلع عيونها وتعلقها ثلاثة أيام على أعمدة الكهرباء التي لم تقتلع بعد من شوارع بيروت ...

صرخت جثة تاسعة : ادخلني إلى البراد وأنا أدفع لك رشوة محترمة ! ..

صرخت جثة عاشر : وانا مفتاح انتخابي . انصحك بادخالي إلى البراد حالاً وإلا

اصبناك برصاصة (طائشة) ... صرخت جثة : وانا اميركي . وستطالبكم سفارتي
(العظيمة) القوية صاحبة القنابل الذرية بردي ...
صرخت به جثة حزينة الصوت : وأنا فقير ولا أسرة لي . دعوني أنصرف ...

* * *

وارتجف صابر لهول التهديدات وصار يردد : يا ويلى .. يا ويلى ...
وفتح البراد . طرد منه الجثث المجهولة الهوية . ثم وقف أمام بابه وهو يصرخ بقافلة
الجثث التي كانت تقفز أمام عينيه مهددة متوعدة : تذاكر .. تذاكر يا شباب ...
اطلعوني على تذاكركم (بطاقات تحقيق الشخصية) .. من كان فقيراً فليمش من هنا ..
من كان بلا (واسطة) فليمش من هنا .. من لم يكن يحمل تذكرة تثبت أصله وفصله ودينه
فليمض من هنا ... هذا براد حكومي ، لا براد فوضى ! ..

* * *

كابوس ١٢٠

كانوا ثلاثة أصدقاء .
أوقفهم الحاجز الأول من المسنحين .
استبقى المسلحون أحدهم وكان مسيحياً وقتلوه ، واطلقوا سراح الاثنين الباقين .
تابع الاثنان سيرهما . استوقفهما حاجز مسلح آخر . استبقى الحاجز احدهما وكان
مسلماً وقتلوه ، واطلقوا سراح الثالث ...
الثالث كان يهودياً ويحلم كل ليلة بإسرائيل . استوقفه حاجز ثالث ، فانضم اليه .

* * *

كابوس ١٢١

جلست تتشاغل بصنع تمثال طفل من الطين .. وتنتظر رنين الهاتف بلهفة ، فقد
يتم استدعاؤها لصنع طفل حقيقي ...
اصابعها تعبث بالطين ... تكور الرأس ... ترسم العينين ، الاذنين ، الشفتين ،
الجسد الدقيق بحجم جسد طفل لحظة الولادة ...
وها هي قد وصلت إلى الساقين والهاتف لم يرن بعد ...
يوم اختارت مهنة الطب ، بالضبط مهنة طب التوليد اعتبر عملها ثورة نسائية في

الاسرة ... الابنة الحجولة ستحرر وستكون طيبة ؟ لم يكن أحد يدري انها بذلك تكرس خجلها الغريزي من الرجل وارتباكها أمامه إلى حد عجزها عن تفجير طاقاتها الخلاقة كلها ، وانها اختارت الطب النسائي كي لا تمس أصابعها جسدي رجل .. فالمرضى سيظل ذكراً بالنسبة اليها ولن تقدر على نسيان ذلك أبداً ... انها ببساطة عاجزة عن مسح ألفي عام من الجاهلية بشهادة جامعية يستغرق اعدادها سبعة أعوام ... وقد اختارت مهنة الطب النسائي كي يقتصر تعاملها مع النساء فقط ، فتريح وتسترىح ... كانت تمارس مهنة التوليد بميكانيكية قاطع تذاكر في باص مزدحم ... وباتقان أيضاً ..

حتى شبت الحرب الأهلية في لبنان ... آه كم بدلتها الحرب الأهلية .. هذا الهاتف اللعين ، لماذا لا يرن ؟ ألا توجد امرأة واحدة في هذه المدينة ترغب في صنع الحياة الليلة مقابل هذا الموت كله الذي يصنعه مجتمع الذكور كل ليلة ؟ عادت تتشاغل بصنع طفلها الطيني الصغير ... منذ صارت ترى الجثث مكومة في الشوارع وفي ردهات المستشفى وتتلد من الاشجار ولافتات المتاجر والشرفات وأعمدة الكهرباء صارت ترى الولادة بصورة جديدة ...

لم تعد مهنتها هرباً من الاحتكاك بالذكور ، بل صارت ترى في الولادة شيئاً باهراً مضيقاً ، ونوعاً من الطقوس المقدسة التي تعوض بها النساء وحشية مجتمع الذكور ... صارت تنتظر رنين الهاتف الذي يدعوها إلى توليد امرأة ما بفارغ الصبر ... كانت تركض إلى المستشفى ، غير آبهة بالقنطرة في الشوارع والألغام تحت الاسفلت وحواجز الحطاف والقنابل عند المنعطف والموت فوق السحابة الواطئة ... كانت تجرد في إخراج طفل إلى الحياة من رحم أمه عملاً باهر الجمال ، بل الشيء الوحيد الجميل والفاضل في هذا الزمن العاهر والمسعور ..

وتشعر بأنها كاهنة في معبد الحياة تؤدي طقوساً بالغة البهاء والروعة والاكتمال ... كانت هي نفسها تولد مع كل امرأة تتولى توليدها ، وتخلق الحياة مع كل رحم يقذف بطفله إلى الحياة ... اولئك الأطفال كلهم هم أطفالها هي ... وهي لم تعد تشعر بالحجل من الرجال ، ولا بالارتباك ، ولكنها أيضاً لا تشعر نحوهم بالاحتقار .. تشعر بنوع من التكامل والمساواة ، هم يقتلون وهي تخلق ، وهي تقتل مرات وهم يخلقون ... انه قانون الكون الطبيعي يسري على الجميع ... انها المساواة الحقة في امكانيات السقوط والسمو ...

ولكن الهاتف لم يرن الليلة ... وأصابعها تصنع تمثال الطفل باتقان ، بينما هي تحس
بألم في بطنها يشبه ألم المخاض .. يتسارع الألم ... تتسارع لمسات أصابعها على تمثال الطفل
بحيث تبدع في تصويره ... يتسارع ألم مخاضها .. يشتد ويقوى ، وهي تكافح بضراوة
كي تحسن رسم الطفل .. ثم تصرخ ... وتقطع حبل السرة ...
ويتحرك التمثال ... يصرخ باكياً في شهقة الحياة الأولى ... يقول لها شكراً ..
وينطلق فاتحاً الباب خارجاً ليتابع حياته .. وتهمس هي : بل شكراً لك . لقد
جعلتني أما ! ...

* * *

كابوس ١٢٢

ايقظني صراخ أمين .
للمرة الأولى منذ زمن بعيد أستيقظ على صوت بشري بدلاً من انفجارات الصواريخ
والقنابل .. ولكن صوته لم يكن بشرياً تماماً ... كان أشبه بنحوار حيوان مذعور ... في
البداية قفزت من سريري خائفة من ان يكون قد أصيب برصاصة ما ... ثم تذكرت العم
فؤاد الذي خلفته ميتاً على كرسيه ... لا ريب بأن أمين اكتشف جثة والده ...
كان أمين يبكي والحادم يشاركه انتحابه ... خيل إلي ان في بكائهما من الخوف أكثر
مما فيه من الحزن ... كأن موت العم فؤاد برقية تهديد لنا جميعاً بالموت الذي لا مفر منه
والذي لا مفر من نسيانه أيضاً كي نستمر في لعبة الحياة ... كان أمين يندب بصوت أسيان
مذعور ، كأنه يبكي ذاته ويصرخ : لقد قتلوه ... ثم من قتله ... ثم من اغتاله ... ثم ادهشني انه
بدأ يركض في كل مكان مفتشاً البيت المحكم الاغلاق علينا كعلبة سردين . قلت له :
ألا ترى بوضوح انه مات بالسكتة او بجلطة بالدماغ او بأي شيء داخلي ، لكن رصاصة
لم تدخل اليه من الخارج ...

ولكن أمين اصر على ان والده قد اغتيل .
لكثرة حوادث القتل حولنا ، لم يعد بوسع أحد أن يصدق ان أحداً يموت ميتة
طبيعية . قلت له : « لا أثر لرصاصة أو شظية في جسده . انا معك في ان يكون الرعب
والارهاق قد فتكا به أكثر من أية قنبلة ، ولكن ، ألا ترى معي أن جسده لم يصب أصابة
مباشرة » . قال أمين : « لعله قد خنق » .

قلت : « لا توجد أية آثار عنف على عنقه أو حوله ، ثم ان الأبواب والنوافذ مغلقة كلها كما خلفناها في الليلة الماضية ... لقد مات الرجل ميتة (طبيعية) كما تموت أكثر كائنات الطبيعة ... »

لكن أمين لم يقتنع . بدا له من العجيب جداً ان يموت اي انسان في هذه الأيام ميتة عادية ، وكان واضحاً ان الخادم العجوز يشاركه رأيه . وتركتهما يبحثان في البيت عن آثار القاتل المزعوم ، وأصوات الرصاص تطاردهما . وجلست في مقعد قبالة العم فؤاد وقلت له : « القاتل مختبئ في داخلك ... لقد خرج من داخلك وقتلك ... لقد قتلك الحب .. قتلك حبك لتحفك المهددة بالخطر ... »

وخيل إلي اني لمحت في عينيه وميض لإقرار متواطئ ! ... قلت له : « أشكر لك حسن إنصائك لي مؤخراً ! ... » .

* * *

كابوس ١٢٣

ما زال أمين والخادم يدوران مذعورين بحثاً عن القاتل المزعوم . تركتهما يفرغان شحنة الصدمة الأولى بالحركة الجسدية . بالنسبة إليّ ، كنت أواجه مشكلة عملية صعبة : كنت سجين في بيت واحد ، مع ثلاثة رجال في حالة انهيار ، وها انا الآن مع رجلين وجثة .. والمشكلة ، مشكلة الجثة ... إننا عاجزون عن دفنها ، إلا إذا كنا نريد ان يقتلنا القناص بينما نحن نحفر قبراً في الحديقة ، فنكون فعلاً كمن حفر قبره بيده ... ولا أحد يستطيع الاقتراب من بيتنا لتهريبنا أو لجمع الجثث من الحي على الأقل ! .. إذن الجثة سترافقنا ... وستتعفن .. وسنواجه كارثة جديدة تفوق كارثة انقطاع الكهرباء ومطر الرصاص ... والجوع ..

بعد حوالي الساعة جاء أمين وانهار في المقعد المجاور لي .. وبدأ ينوح : آه يا أبي . قلت : « انه لم يعد أباك . إنه الآن جثة . وعلينا ان نفعل شيئاً كي لا نخنقنا رائحتها حين تتعفن . يجب ان نفكر في (خزنها) بمكان مناسب قبل ان تتصلب نهائياً ويصير تحريكها صعباً .. » .

بدا لي مصعوقاً . كان واضحاً أنه ما زال يرى في الجسد الأزرق الهامد أمامنا رجلاً .. يحبه هو أبوه . لم يلحظ بعد اي مأزق يعنيه وجود جثة في ظروف كظروفنا ، وان والده

لم يعد أكثر من جثة ! ... قررت ان أصمت وان اترك الساعات المقبلة توضح له ما اعنيه .. وقلت له انني سأفقد بيتي في الطابق الثالث .. وسأتركه للزمن الصامت ذي الفصاحة اللامتناهية ... ليفهمه الفرق بين أب حي ... وجثة لا أحد .

* * *

كابوس ١٢٤

كل جدار في بيتي يقول انه في ساحة حرب . كل نافذة تنطق بانني في منتصف الطريق تماماً بين المتقاتلين ، وان نصيبي من الرصاص الطائش والصواريخ المنحرفة قليلاً عن الهدف يكاد يوازي نصيب الهدف نفسه .. توقفت قليلاً أمام غرفة نومي التي أكل الصاروخ نصفها .. كانت ريح العاصفة قد أطاحت بكل ما فيها تقريباً .. وحده رف البوم وجداره ظل سالماً ... وبدأ لي الأمر مذهلاً ...

فالبوم طائر بريء لكنه سيء السمعة .. ربما لذلك احبه ، كأعلان عن رفضي للنظرة التقليدية المتوارثة بالنسبة للبشر وللحيوانات على السواء .. وربما كنت احبه لذاته .. لعينه الشاسعتين المحرومتين من حنان البشر طوال عصور .. لا ادري .. كل ما ادريه هو ان أربعين بومة كانت تشاركني غرفة نومي . بوم من رخام . بوم من خشب . من حديد . من شمع . من الصيني . من الكريستال . من القطيفة المحشوة بالقطن والتبن . من اكواز الأرز . من الحفر بالنار على الخشب . بوم من جميع الأحجام والأشكال وحينما أغلق باب غرفتي وأنام ، تستيقظ هي وتتجول في الغرفة ثم تطير عبر النافذة إلى الحديقة لتتابع حياتها الليلية ثم تعود إلى أماكنها قبل ان استيقظ ... كان كل من يعرفني يتشاءم منها ، أما انا فلم اكن اتشاءم منها ولا اتفاعل بها .. كنت ببساطة : أحبها .

اما الآن ، وفيما انا احرق مذهولة في دمار غرفتي ، ولا أجدر فيها سالماً غير جدار البوم والرف الخاص به تتناوب رعدة غامضة ... جدار البوم وحده قد بقي .. هل استطاع البوم حمايته ؟ . هل من المفروض ان نتفاعل بالبوم بدلاً من التشاؤم منه ؟ ولكن ، لا .. كما لم أقع فيما مضى في فخ التشاؤم بالبوم علي الآن أيضاً ألا اقع في فخ التفاؤل به .. وكلاهما موقف واحد في جوهره وخاطيء أيضاً ..

بالمقابل ، اليس من الممكن القول : ان الصاروخ دمر الغرفة بسبب وجود البوم

فيها بدلاً من القول بان هذا الجدار قد نجا لان اليوم يقطنه ؟ ..

* * *

كابوس ١٢٥

اتابع جولتي الصباحية التفقدية في اطلال بيتنا ... لا استطيع الانفعال كثيراً بأي شيء ، كأن الجوع يبلد حواسي العادية ويطلق طاقات حواسي السرية وكوايبيسي المذهلة ... في غرفة الاستقبال دمار لا بأس به .. مقاعد ممزقة (بالرصاص ام بالسكاكين ؟) لا أدري كيف .. ذلك كله لا يهمني حقاً . كل ما يهم هو مكتبي التي استطاعت وحدها إقناعي بالكف عن التشرذ لان المكتبة لا تستطيع ان تحيا على أجنحة الطائرات وصلات الترانزيت كما ان العشب لا ينمو على الحجر المتدحرج باستمرار .. لا أخاف على بيتي من السرقة .. لا شيء ثميناً فيه غير كتيبي ، ومخبرة من الرخام أهدها يوسف إلي ذات يوم والسارقون عادة يحرقون الكتب لأنها من فصيلة ما ثقل حملة ورخص ثمنه ! .. (اسرقوا الكتب ايها الحمقى فقد يأتي الزمان غير الرديء ويصير الكتاب أغلى من الذهب ... واذا لم تصدقوني لا تضرعوا النار فيها على الأقل) اذا دخل بيتي سارق ما سيغضب لافتقاره إلى الفضيات الثمينة والسجاد النادر والقراء (انا فتاة الاوتوستوب . اقطن خيمة من ورق . لا أملك من الثياب أكثر مما تملك راعية !) ولكن ارجو ألا يدفعه غضبه هذا إلى حد إضرام النار في المكان .. وفي مكتبي الهائلة التي تغطي ستة جدران بأكملها ... تتلاحق الانفجارات .. انتهت استراحة المحاربين الصباحية وحمي وطيس المعركة ...

أنسحب إلى الدهليز الذي اخترته ملجأ لي من (الغارات) .. هنا ، سأموت على الأقل مطمورة بكتبي ! ...

* * *

كابوس ١٢٦

الظلام دامس . لا كهرباء . الدهليز يزداد ضيقاً . شيء ما يقرض طرف يدي . أقفز مرتاعة . تراه جرد . تراها أوهامي ؟ .. تراه ظنني ميتة ؟ اسقط في برر معتمة ...

ارى ستة وعشرين شخصاً في شارع الغزال بيروت . هربوا من القصف إلى ملجأ مع أطفالهم . لا نور في الملجأ . جلسوا أرضاً يرتعدون . بعد فترة قصيرة هاجمهم

الجرذان وركزت قضماتها على لحم الأطفال الطري .. جرحوا ... لم يستطيعوا الخروج
بسبب القصف ...

اقفز من الدهليز المعتم هاربة ...
جرح يدي يتزف قليلاً ...

اذن لم اكن واهمة . لقد باشرت الجرذان بالتهام جثتي حتى قبل ان أموت . انها
الحرب الأهلية . القوي يأكل الضعيف حين تسنح له الفرصة . انها الثورة ، ومأساتها
التعقيد... مأساتها سقوط عدد كبير من الضحايا الذين وجدت هي أصلاً لانقاذهم!
مأساتها استغلال الكثيرين الحقير لاغراضها النبيلة ! ... مأساتها اندساس القتلة بين صفوف
المقاتلين الشرفاء . مأساتها مع الذين يمارسون الارهاب تحت غطاء الثورة ويمارسون القتل
والسرقة والايذاء تحت يافطتها .

* * *

كابوس ١٢٧

رصاص . رصاص
التفكير مستحيل . الدماغ لم يخلق ليستعمل بينما مسامير الرصاص تدرزه .
أنا حيوان مذعور ...
أعوي ...
لا أفكر ...
أعوي ...
لا أفكر ...
أعوي ...
أعوي ...

* * *

كابوس ١٢٨

أعوي ...

.....

.....

.....
.....
... وأعوي ...

* * *

كابوس ١٢٩

يأتيني يوسف والثقوب تزداد اتساعاً في جسده ، ودمه ما يزال ينزف منذ أشهر
ولما يحف بعد . دوماً يأتيني مع اقتراب الموت وتصاعد الانفجارات .. أشعر بأنني هشة
وصغيرة كدمعة . وكما في كل مرة ، اتحسس واضمه إلى صدري ، وتحترق اصابعي
جسده الاثري .. ثم يتلاشى من جديد ..

هذه المرة أشعر بالغضب . اتحسس جسدي . انه ليس اثرياً .. الجرح في يدي الذي
يصرخ بالألم ، يصرخ في الوقت ذاته بالحياة . انا اتألم ، اذن انا أحياء . ولكن الألم لن
يكون علامة الحياة الوحيدة المتبقية في جسدي .. يوسف مات . يجب ان أعي ذلك حقاً .
لقد مضى ولن يعود أبداً . اني اعيش جثة ذكراه ، تماماً كما يصير أمين على معايشة
جثة أبيه ...

أركض بحثاً عن المسجل الصغير الذي سبق ان أهداني إياه مع موسيقاه التي عشنا على
أنغامها أحلى أيامنا .. البطارية ما زالت تعمل .. أدير موسيقاه .. ارفع صوت المسجل
حتى أقصاه ، وانصت إلى موسيقى ذكرياتنا ممزوجة بأصوات رصاص الواقع كما هو ،
فوق شريط الماضي ، بحيث يمحو التسجيل الجديد ما تحته من قديم ... شيئاً فشيئاً ينحفت
صوت موسيقاه وينحف تسارعها بينما البطاريات تفرغ .. ويعلو عليها صوت الرصاص
والقنابل ، صوت (الآن) .. ينحفت صوت موسيقانا باستمرار ويبطئ تسارعه ويصير
كثيباً ويتبدل إيقاعه الحي إلى صوت أجوف أخن .. يتلاشى .. يتلاشى .. يصمت تماماً ..
وأشعر براحة أفعى خلعت جلدها القديم ! .

* * *

كابوس ١٣٠

تماماً كما في الكوابيس ...

الريح المبتلة بمطر مسموم تصفر . تدخل إلينا عبر النوافذ المفتوحة الزجاج الموصدة الأخشاب ، بحيث يبقى الضوء في الخارج ويدخل البرد الشتائي الشرس . تماماً كما في الكوايس .

الرؤية منعدمة تماماً ... ولا أدري كيف يبصر الرصاص دربه إلى الهدف .. وكيف ترى القنابل طريقها إلى رؤوس ضحاياها ... والجحيم القارس البرد مروع ، وكوايسه أحلام جهنم الدافئة ! ..

تماماً كما في أفلام الرعب المبالغ بها ..

الخادم وأمين وأنا نحدق بالجنة التي تصلبت تماماً وبدأت ملامحها تتورم وتتبدل قليلاً .. الفك انفرج قليلاً وارتسم على الشفتين المزرقتين المنفرجتين عن اسنان اصطناعية ما يشبه الابتسامة الساخرة جداً . انه الموناليزا ! موناليزا الحرب الأهلية ! موناليزا بيروت ٧٥ ؟ ...

انفجرت أضحك . انفجر الخادم يضحك . أمين أيضاً . صمتنا فجأة ولم يبق من الضحك غير شهقات تحولت إلى بكاء في حلق أمين .

والليل يهبط سريعاً . لعل الساعة لم تتجاوز الرابعة بعد الظهر ، ولكن في مثل هذا المساء الشتائي المروع . تحتجب الشمس سريعاً لأنها ببساطة لم تظهر إطلاقاً ... أجل ! الساعة تقارب الرابعة والريح الباردة المسمومة المطر تحمل معها الذرات الرمادية لمساء قائم جداً ...

اليوم الأحد او السبت . لا أدري بالضبط . ادرت زر الراديو على أمل ان أسمع التاريخ . فسمعت صوتاً يغني :

راح للنسيم واشتكى وجرح خدوده وبكى

فأسكته فوراً . أجل . اليوم السبت أو الأحد . من المفروض ان يفكر الناس في مثل هذا الوقت بمشاكل بسيطة وأليفة . منها مثلاً اين يقضون عطلة نهاية الأسبوع . وهل يعدون سندويشات جبنة مع الفجل ام مع البندورة ؟ . اما انا ، فأفكر مساء السبت او الأحد بمشكلة من نوع آخر ، وهي : ماذا أفعل بجثة الميت المكومة أمامي ؟ .. وماذا أفعل بعطشي والماء مقطوع ويجوعي والأكل ينفد .

في البلاد التي يجوع أهلها ، تصير عطلة نهاية الأسبوع مجزرة ، عليهم قضاؤها في

دفن الموتى ... كيف لم يلحظ راكبو البخوت في فندق سان جورج والمتزجلون على الجليد في فنادق الأرز وفاريا هذه الحقيقة البسيطة ، وخيام الجياع منتشرة على طول طرقهم إلى أماكن لهوهم ومنتجعاتهم ؟ .. كيف كانوا يرون ولا يبصرون ؟ ...

كان أمين أول من تكلم . قال : « سنحمله إلى فراشه » .

قلت : « سنحتاج إلى غرفة نومه . إنها أكثر الغرف أمناً في البيت ولها من جدار الحديقة الملاصق ما يشبه الجدار المزدوج » .

قال مصرأ : « بل سنحمله ونسجيه في فراشه » .

قلت : ستفوح رائحته وتمتد إلى غرفتي وغرفتك الملاصقتين لغرفته .

ألحّ : « سنحمله إلى فراشه حسب الأصول » .

حملناه إلى فراشه . مددناه . كان أثقل مما يوحي به جسده المتقلص النحيل . سحبنا الوسادة لاضع عليها رأسه .. وجدت أربعة أرغفة من الخبز أخفاها هناك . وجدت أيضاً تحت الوسادة الأخرى تفاحتين وكيساً من الحمص المشوي (قضامة) . كنت أكثر جوعاً من أن يدهشي ذلك أو يغضبني وبدأت ألتهم رغيفاً من الخبز حتى قبل أن أفكر بغسل يدي ... بعد القضمات الأولى ، شعرت بمزيد من الجوع بدلاً من أن أشعر بالشبع ! .. كأن الأكل منحني طاقة لأتحسس مدى جوعي ! ... رمقني أمين بغضب . كيف آكل في حضرة جثة والده ؟ . تابعت أكلي كأني ذئب يلتهم أرنباً بكل براعة ودور ، أن يعي أن اسم ما يقترفه هو لدى بعض الفصائل الحيوانية غير الجائعة القاطنة على وجه الأرض : وحشية .

تناول أمين بدوره رغيفاً .. وقضمه ..

* * *

كابوس ١٣١

تمددت لأنام . لم أكن أشعر بالنعاس ، لكن علينا أن ننام مع غروب الشمس توفيراً لشموعنا القليلة وهرباً من الظلمة الموحشة المخيفة منذ انقطاع الكهرباء . حاصرني أصوات مخلوقات دكان الحيوانات الأليفة .

فكرت قليلاً بأخي . ترى ماذا يفعل في السجن ؟ لست خائفة عليه من صحبة المجرمين ، فسجوننا لا تضم سوى المجرمين الصغار . أما المجرمون الكبار ، فيرتعون

في أقباص الحرية الوهمية وعلى كراسي الحكم .
عادت أصوات مخلوقات دكان الحيوانات الأليفة تحاصرني .. تأتيني مع زعيق
الريح القارسة التي خيل لي أنني أشم فيها رائحة جثة العم فؤاد وهي تتعفن .. ولكن لا ...
في مثل هذا الطقس البارد ، لا يمكن بلشته ان تكون قد باشرت تخمراتها ، وللايين
المخلوقات اللامرئية الجراثيمية لمباشرة حياتها وتكاثرها فوق موته ... ومع البرد يعاودني
الحس بالجوع المرير ، وبالألم في يدي حيث عضه الفأر ، وآثار أظافر كلب الصيد
الجائع ، الرشيق كحصان عربي أصيل ...
حتى جرح أذني شبه المندمل يخزني كالأبر .. (لا أدري لماذا تشتد الأوجاع في الليل
وتلتهب . كالعواطف .. كل شيء في هذا الليل الصقيعي يلتهب) ...
اجل !! جرح اذني يخزني كالأبر .. يذكرني بجراح آلاف الممددين جرحى على
أرصعة هذا الوطن الحزين ، أو المحظوظين منهم الذين ضمهم سرير في مستشفى ...
آلاف الذين ينزفون في هذه اللحظة في الأزقة المعتمة والريح تحترق جروحهم
كالسكاكين ...
تراني كنت أحلم ، أم انني ذهبت حقاً اتلصص على مخلوقات بائع الحيوانات
الأليفة ؟ ولكن ما الفرق بين الحلم والواقع ؟ المهم الحقيقة والمعرفة ...
وانا اعرف جيداً انني شاهدتهم ...
شاهدت الكلاب الجائعة تتشاجر...تعوي.. تخافها بقية كائنات المخزن وتتزوي في
أقباصها ، ووحدها سمكة كبيرة تتابع التهام سمكة أصغر منها في قاع حوض الماء
المطبق الصمت ... تتابع الكلاب الجائعة صراعاها ... اذا طال صيامها فلا بد من ان
يفترس بعضها بعضاً ... إنها سنة الحياة ... الكلب الذي يجرح أولاً هو الذي سيؤكل
أولاً ، حياً أو بعد أن يموت ... ذلك يتوقف على مدى الجوع ...
القتال الشرس يدمر الواجهة السياحية للدكان تماماً . الارنب المتعب يفتح عينيه
الحمر اوين بذعر . القط السيامي يموء بجنون وينفخ في الهواء نفخات الحرب الافروانية
الفحيح ... الببغاء يحن في قفصه ، ولم يعد يتحدث بالفرنسية المغناج ، بل صار يزق
كما كان يفعل اجداده في الغابات والكلاب في كر وفر .. والغبار ، والرائحة الكريهة
تنتشر ، رائحة الفضلات وعرق الخوف ولعاب الجوع والغضب ... تعب الكلاب

الخمسة ، ويهدوء ينتحي كل منها ركناً قصياً في الدكان ...
احدها قد جرح. لا بد انه قد جرح ، فهو يتزف . لكنه يتستر على جرحه بلعق الدم
سراً ... إلا انه يعرف ان سره لم يعد سراً ، وحاسة الشم المذهلة لدى الكلاب كشفت
جرحه النازف ..

انهم يشمون رائحة الدم ... يعاودهم هياجهم .. تتجدد المعركة ، والكلب الجريح
يتحامل على نفسه ويقاتل . يعرف انه اذا لم يقاتل ، فذلك معناه انه سيقتل ويؤكل فوراً ..
اما ما دام حياً وقادراً على الصراع ، فسيظل يحتفظ بحقه في النباح والعض والتكاثر أطول
مدة ممكنة ...

تنتهي الجولة الثانية بارهاق الجميع ، ويجرح كلب آخر ... ترتمي الكلاب لتنام ،
وتنتهز الفرصة بقية الحيوانات التي أرهقها القتال ، وهي التي شاركت فيه هياجاً وقاقاً
ورعباً ، وامتصت كهارب الموت المشعة منها واليها وعبرها ...
ينامون نومهم البائس ، كنوم اهل الحي جميعاً .

* * *

كابوس ١٣٢

البرد القارس وانا عارية في غرفة عارية من الاثاث. ادور في الغرفة وابكي واتساءل :
أين اخي .. أين أخي ؟ . أين شادي ؟ اقرب من النافذة لافتحها وأنادي احداً لمساعدتي .
النوافذ مجرد خطوط ملونة مرسومة على الجدار .
اركض نحو الخزانة لأرتدي شيئاً يقيني من البرد ، الخزانة خطوط ملونة مرسومة
على الجدار .

أركض نحو الباب لأهرب . الباب خطوط ملونة مرسومة على الجدار .. كذلك
مقبض الباب والقفل .

أصرخ وأصرخ . لا تخرج الكلمات من حلقي وانما يصدر عني صوت شبيه بمواء
قط يذبح ..

الغرفة علية من الاسمنت ، ولا منفذ ، وسكاكين البرد والخوف تخترقني .
آه أين أخي ؟ أترأه لا يزال في السجن ؟ .. كيف اغادر هذا القبر العجيب .
أركض من جدار الى آخر ، ومن مقبض نافذة الى أخرى ، فتتكسر أظافري على

الجدار الأصم . لا نوافذ . لا باب واصرخ : اين أخي .
فجأة يفتح السقف نحو الاعلى كما لو كان غطاء لعبية محكمة الاغلاق .
تطل من الاعلى وجوه الخمسة رجال ملتحين ، وألحظ بهلع أن لهم الوجه ذاته وأنهم
يرتدون الثياب ذاتها كما لو كانوا رجالاً واحداً يقف محاطاً بخمس مرايا .
يقلفني أحدهم بكيس من الخيش . أسقط تحته . يتمزق منشقاً عن جثة باردة ..
أنهض من تحتها وأقلب وجهها وأرى جثة أخي ..
وأصرخ طويلاً طويلاً مثل ابن آوى اسطوري في ليلة قمرها أصفر ... ويقفز الرجال
الى الغرفة محيطين بي ... وأبكي .. واتحسس الثقب الدامي في صدغه وابكي ... واصرخ :
من قتله ؟
يجيب الرجل وهو يشير الي يديه المقطوعة التي استعاض عنها بخطاف حديدي : أنت
التي قتلتها ...
أكرر : من قتله ؟
يكرر : أنت . أأنت أخته الاكبر سناً منه ؟ اليس والدتكما ميتة ؟ اذن انت التي
قتلتها .
— من قتله ؟
— لقد اصيب برصاصة طائشة بينما كان خارجاً من السجن .
— من قتله ؟
— كنا نطلق الرصاص حداداً على موت أحد اصدقائنا حينما أصيب برصاصة قتلتها
وأنت المسؤولة عن ازعاجنا بمصرعه .. وعن الرصاصة المهدورة ..
وفجأة هجم الرجال وقيدوني بجبل تفوح منه رائحة دم جاف واخرجوا سوطاً
وبدأوا بجلدي ...
— قررنا محاكمتك بتهمة تخريض شقيقك على ارتكاب جريمة « المشي أعزل » على
رصيف الشارع كما لو ان الارصفة خلقت لتجول المشاة العزل بدلاً من بقائهم في الملاهي
وداخل البيوت . وافراغ الشوارع لنا نحن المسلحين وتقرر اعدامك بتهمة التسبب بموت
شقيقك وبازعاجنا وهدر وقتنا الثمين .
لولا لساعات السوط الموجهة . لبدا الامر شبيهاً بنكتة عملية ... لكنهم احاطوا

عنقي بالسوط ، وعلقوني الى خطاف دقوه بالجدار وتركوني اموت شقراً .. وحين غادروا المكان ، كان الدم يتزف من جسدي ويبلل الحبل الذي قيدوني به ... وكنت اختنق ..

وحاولت ان أصرخ بأخي : أيها الاحمق .. لماذا هربت من السجن حيث (المجرمون) الصغار وخرجت الى الشارع حيث يندس المجرمون الكبار بين صفوف الثوار الحقيقيين ؟ . ولكن صوتي كان مجرد مواء .. وللغرفة علبة من الاسمنت الملون ، وعبر غطائها المكشوف شاهدت السماء ، وكانت حجراً غرائبياً شاسعاً .

* * *

كابوس ١٣٣

لا يمكن لأحد ان ينام حين ينفجر هذا النوع من القذائف ، حتى ولو كان قد قطع المانش سباحة جيئة وذهاباً في اليوم السابق ؛ ...
تقلصت في فراشي ، كأن جسدي يحاول ان ينحني داخل جلدي ...
لم انهض .

صوت امين المذعور يناديني امام الباب . تظاهرت بالنوم . ألح . امعنت في تجاهله . صار ينتحب بصوت خافت . أشفقت عليه وعلى نفسي . سألته ماذا يريد . قال : ارجو أن تساعديني في تبديل موضع الوالد .. سأنام في مكانه وينام هو مكاني ، فغرفته اكثر الغرف أماناً .. وهذه الصواريخ .

صرخت به : ألم اقل لك ذلك منذ البداية ؟ ولكنك أصررت على التصرف « حسب الاصول » ! ..

لم يجب . نهضت . كان قد ايقظ الخادم . الجثة ازدادت ثقلاً . ملامحها في ضوء الشمعة الخافت تبدو بصحة جيدة . ومرحة الابتسامة . كأن العم فؤاد يتسلى بحملنا له من فراش الى آخر ويستمتع كثيراً بهذه اللعبة ...

ظلنا على الجدار أخافني . فقد ارتسم ضخماً وقاتم السواد لثلاثة أشباح يحملون رابعاً ... بدا لي بطريقة ما ظلاً غير انساني ، كأنه انعكاس لفصيلة غير بشرية : لقروء او كلاب او غيلان الحكايا الخارجة في الليل لنقل الجثث .
انتهت المهمة . عاد كل منا الى نومه البائس ، دونما حوار .

كابوس ١٣٤

هذه المرة ، ايقظني امين دونما انفجار .
آه . أما لهذا الليل من آخر ؟ ...
الريح ما تزال تنفخ اعصاراً من البرد وزخات الرصاص ...
ماذا هنالك يا أمين ؟ ...
قال : يجب نقل الوالد .
— تقصد جثته ؟
تجاهل اشارتي . كرر : يجب نقل الوالد .
— لماذا ؟
— رائحته .
— لم تفح بعد .
— بصراحة . انا خائف جداً . كلما اغمضت عيني ناداني وطلب مني مرافقته ..
غرفته مجاورة جداً لغرفتي . دعينا ننقله الى غرفة الصالون .
تجمعنا حول الجثة ، الخادم وامين وانا . في عيني الخادم نظرة مستسلمة ميتة . في عيني العم فؤاد نظرة حادة جداً . تقدمت لأحمله من ناحية الرأس واغلقت له عينيه ..
قاوم الجفنان بصلابة غير متوقعة وظلت العينان تحدقان . الابتسامة ازدادت نضارة والوجه عافية (أم تورماً) ؟ ... الابتسامة نفسها على وجهه . لا ريب في ان العم فؤاد مستمتع كثيراً بلعبة نقله من فراش الى آخر ...
من جديد ألمح ظلنا على الجدار ، ضخماً وغير انساني ، ويخيل الي ان لھائنا يتصاعد منه . شعرت بأننا كخيالان الاساطير ، وقد خرجنا من بين دفتي حكاية للرعب لتتابع حياتنا البائسة ، ونقضي ليلنا في الركض بالحث تحت الرصاص والريح العاصفة . واخيراً مددناه على الاريغة الكبيرة في غرفة الاستقبال البعيدة نسبياً ، عن غرف النوم .
وحين رفعت نظراتي الى امين لاحظت انه غير راض تماماً . وعرفت انه سيوقظني ثانية . قلت له : ما رأيك في ان ننقله الى مكان آخر ...
قال : مثلاً ؟
قلت : نضعه في الثلاجة الكبيرة .. صحيح ان الكهرباء مقطوعة ، لكنها محكمة

الاعلاق .. وبذلك لن تسمع صوته مهما صرخ ولن تشم رائحته .

سأل الخادم : تعين ان تقطعه الى اجزاء .

قلت : اعني ان ننتزع من الثلاجة رفوفها وادراجها ، وننتزع عنه بعض ملابسه ونياشينه ونحشوه داخلها قطعة واحدة . لن يكون وضعاً مريحاً طبعاً لكنه سينام على اية حال ! ..

لم يضحك احد للنكتة . لم يوافق امين . انسحبنا بصمت لنام . لاحظت انه ما زال غير راض عن موضع الجثة . وعرفت انه سيوقظني ثانية ! .. ايقظني .

هذه المرة كان ينتحب ، وكنت ارتجف غضباً ... كانت مطاردة النوم في مثل هذه الظروف واصطياده اصعب من اصطياد العنقاء .. وها هو يوقظني في كل لحظة اكاد اطبق فيها يدي على فراشة النوم الهاربة .. فهمت . يريد ان ننقل (الوالد) . صرخت به : صارخني . ماذا تريد ان تفعل بالجثة . انها جثة وعليك ان تواجه ذلك . ونحن ثلاثة احياء وعلينا ان نواجه ذلك . ماذا يقلقك بالضبط .

(سمعت صوتي ، آمراً . قاسياً . بارداً . كأنه ليس صوتي انا التي كنت اذوب رقة امام يوسف) .. بكى : بصراحة .. انا خائف ... لا اجرؤ على النوم في بيت واحد مع ميت .. مع .. جث .. جث .. جث .. جثة . قلت : عظيم . هذا اعتراف هام . اذن تريده خارج البيت ؟ هز رأسه موافقاً .

قلت : حفر قبر في الحديقة عمل مستحيل . سيظنوننا نزرع الغاماً . بنادق القناصين الحديثة ترى في الظلام جيداً ... هز رأسه موافقاً .

قلت : ولا نستطيع ان نرمي بالجثة الى الشارع لان الحديقة تحيط بنا من كل جانب ... هز رأسه موافقاً .

قلت : الاحتمال الوحيد الباقي هو ان نضعه امام باب الدار الرئيسية « حسب الاصول » ... وفي الصباح نبث في المشكلة من جديد — اذا بقينا احياء — .

وايقظنا الخادم ، بدا عليه انه ما زال نائماً حتى وهو يشارك في حمل الجثة ، العم فؤاد ازدادت ابتسامته عرضاً ... ربما كانت امته ليلة في حياته تنقل فيها بين فراش واخر ،

وثلاثة من الاحياء — الموتى ينوعون تحت ثقله ... ترى ، منذ متى لم يحمله أحد بين ذراعيه ويهدده ؟ ربما منذ كان طفلاً .. منذ حوالي قرن كامل من الزمن ... يا للزمن .
لم اكن ادري اني اخترت هذه القوة العضلية كلها داخل جسدي النحيل ... وكل هذه الصلابة والقسوة ...

كنت اقود (حملة) نقل الجثمان ، وكان امين في حالة انهيار مذهلة . اما الخادم فبدأ لي مرتبكاً ، وفهمت السبب حين لاحظت اختفاء بعض النياشين الذهبية عن صدر (الفقيد) ! .. لعله تسلل في الظلام الى الجثة ، دخل وارتعد حتى استطاع انتزاعها .
لم أله . انه منطلق الجوع والفقر .

أخيراً وصلنا الى الباب كقطيع من المجانين يتسلى باللعب بجثة . واستندنا الى الجدار ، وبدأ مثل متسول متعب قابع تحت الباب ويده لا تطال الجرس فوقه وعدنا بصمت ، كل الى فراشه ... وكانت في عيني امين نظرة خفية من عدم الرضى .. وعرفت انه سيقظني ثانية . لذا ، تمددت في فراشي ، ولم أنم .

... هذه المرة ، حين جاء يوقظني ، لم اكن نائمة ... كنت ما ازال انصت الى لهات كائنات دكان الحيوانات الاليفة ، وأنين جوعها وجراحها . . وانساءل : ترى أين هرب صاحبها الذي كان يرتزق من الاتجار بها ؟ .. وكيف هرب وتركها للدويت جوعاً في اقفاصها ؟ .. وظوال هذه الاعوام الستة التي كان يرتزق من الاتجار بها ، ألم يربطه بها خيط حنان واحد او مشاركة او حس بالمسؤولية ! أتراه في باريس أم لندن الآن ؟ .. لم يكن بوسعي ان احمل لها الطعام ، لانه لم يركز قد تبقى لنا الا القليل .. وحتى لو كان لدي من الطعام ما يكفي لما تجرأت على دخول الدكان الثانية ، وانا اعرف ان كلاب الصيد الجائعة طليقة الانياب والمخالب والجوع ... ولن تميز في هذه اللحظة بين عدو او صديق ...

أجل .

هذه المرة جاء يوقظني ، لم اكن نائمة ... وكنت اتوقعه .. قال : لا استطيع النوم ...
انه لا يكف ثانية عن قرع الجرس ..
— لا يمكن له قرع الجرس . هل نسيت ان الكهرباء مقطوعة ؟ ثم اذ جثة ... اي انه كف عن قرع اي جرس .

— ولكنني اسمعه يقرع الجرس ، ثم يضرب الباب بكلتا يديه ، ويصرخ طالباً الدخول ، ويقول انه خائف وان البرد موجه ...
— حسناً . ماذا تريد ان نفعل به ؟ اليس من الافضل ان نعيده الى الداخل ونساهره ونسامر معه ؟ ..

لا فائدة . انه في حالة هستيرية لا يجدي معها المزاح او السخرية .
وبدأت افكر بهذه العضلة . هنالك جثة علينا التخلص منها ، شرط ان لا تكون داخل البيت لان ذلك يخيف امين ، وان لا تكون خارج البيت لانها ستقرع الباب وذلك يخيف امين ايضاً . المطلوب مكان لا هو بالداخل ولا بالخارج . السطح !
قلت له : سنحمله الى السطح ! ...

وتخيلنا درجات السلم الخمس والتسعين التي تقود الى السطح ، والجملة الثقيلة التي تزداد ثقلاً كلما تقدم الليل ، ونحن نجرجرها ونحملها ونتعثر تحتها او فوقها .. والبرد ، والرياح التي تصفر ، وصفعات المطر ، وارهاقنا وجوعنا ... وبدا الامر مستحيلاً ...
وكان امين — لحسن الحظ — قد لاحظ ذلك ايضاً ، وقال انه يرى الامر مستحيلاً ...
قلت له : ماذا نفعل لنوفق بين عواطفك نحو الموت وعواطفك نحو (الاصول والتقاليد) ...

قال فجأة : سنضعه امام باب الحديقة حيث لا جرس يقرعه .
— سيضرب الباب بكلتا يديه ... اعني ، ستسمعه يضرب الباب ...
قال وقد حزم امره : سنضعه داخل برميل القمامة بالحديقة عند باب البيت الخلفي ونحكم اغلاق الغطاء .

هذه المرة ، اعلن الخادم العصيان العام حين ايقظناه . قال انه متعب ، واذا كان لا بد من بذل اي مجهود فسوف يبذله لاطعام القردة في الحديقة وطلب منا ان نترك المسكين في سلام وان نتركه هو ايضاً في سلام . ولم ينتظر رأينا ، أغمض عينيه في عناد نهائي متصلب ! ...

هذه المرة ، تركت امين يحمل القسم الاعلى من الجثة ، وتظاهرت بحمل الجزء الاسفل لكنني كنت (اغش) فقد كنت مرهقة حقاً ، وتركته يجرجرها على الارض حتى وصلنا الى باب المطبخ الخلفي .. ولم نكد نفتحه حتى هاجمتنا الريح كأنها تأنيب غامض لقوى

ما وراء الطبيعة ... (ولكنه جثة ، ونحن احياء ، وفي ظروف لا تحتل المهادنة . ثوبه الرسمي العتيق وأوسمة (الماضي) ونياشينه لن تمنع جثته من التعفن . لا مفر من دفن الجزء الذي يتعفن من الماضي ، وجسده ماض متعفن) هكذا كنت اقنع نفسي بينما كنا نضع الجثة في البرميل . كانت مهمة اصعب بكثير مما توقعت . لم تعد الجثة جسداً بل تمثال من الرخام . ثني الاعضاء لادخالها في البرميل كان يتطلب جهداً جبّاراً حقاً ، وقد فكرت اكثر من مرة بالاستعانة بمطربة ... الرصاص كان ينهمر ، وكلما طالت (المهمة) ازدادنا تعرضاً للخطر . ثم انه لأمر بغیض حقاً ان تكون مثقلاً بالجوع والخوف والبرد والنعاس وبجثة ! ... وحين انتهينا من ايداعه تابوته الاسطواني المعدني ، ادهشني ان امين احكم إغلاق غطاء البرميل كأنه يخشى من هرب والده ! ...

لم اغسل يدي قبل النوم ... احتفظت بالماء للشرب .

كان علي ان اغسل ذاكرتي من هذه الليلة الرهيبة .. لم تكن الجثة هي التي اخافني ، وانما انا .. صورتني في مرآة الاحداث هي التي اربعتني وأذهلتني ...

لم اكن ادري أبداً اني امتلك هذه الطاقة على الصلابة والمواجهة ... ربما كأني مخلوق اخر حينما يواجه اعصاراً مريراً ...

كانت الانفجارات حادة وعنيفة ... والصواريخ .. ورغم ذلك ، وجدتي انزلق الى بئر النوم ... للمرة الاولى أقدر على النوم في حضرة الصواريخ .

ولكنه كان نوماً قلقاً مضطرباً ... يشوبه غمض نصف مؤلم في احشائي ...

ام في روعي ؟ ...

* * *

كابوس ١٣٥

يلعبون كرة السلة ... والكرة قنبلة يدوية .

الملعب مغطى بالوحل . أحد الفريقين تبدو على ثيابه الممزقة رقة الحال ، يركض افراده باقدامهم المحرومة من الاحذية .

الفريق الآخر يرتدي ثياب التزلج المترفة الدافئة التي تعيق حركتهم في الوقت ذاته انفجرت القنبلة ... قتل الجمهور الحكم ، وقرروا ان شروط اللعبة خاطئة ومن الضروري تبديلها ... ولكن الذين ماتوا ، كانوا قد ماتوا ! ..

نقلت بعض جثث اللاعبيين الى قبور رخامية . بعضها الآخر الى قبور طينية . بعضها دفن وفقاً للطقوس الدينية المسلمة او المسيحية، وبعضها رموه على قارعة الطريق لانه فقير ووحيد ... ووقع شجار كبير حول طقوس الدفن وشعائره ، وحول حدود المقابر واقطاعاتها ذهب ضحيته مزيد من القتلى .

انه الليل ...

السماء تمطر ... انها تمطر على قبور الجميع ... وعلى الذين بلا قبور ... ودونما تمييز ..

* * *

كاويس ١٣٦

في الصباح ذهب نديم مليئاً نداء المذياح وتبرع بدمه . كان فخوراً لان دمه من فئة (0+) التي يمكن منحها لجميع البشر أياً . كانت فئة دمهم ... وبعدها بدقائق كان دمه يسري في عروق جريح بحاجة الى الدم ، واسمه سليم .

عاد نديم الى بيته مرهقاً .

فوجيء بجثة شقيقه الذي كان قد اختطف ! ...

دبت الحياة في سليم بعد نقل دم نديم اليه . قرر اخلاء سريريه لجريح اخر من الجرحى المكومين في الممرات . غادر المستشفى في طريقه الى بيته .

غادر نديم بيته بحثاً عن اي شخص من (الدين) الآخر يقتله .. (فتح حاجزاً) لحسابه الشخصي لا لحساب القضية .

صادف مرور السيارة التي تنقل سليم . نديم اطلق الرصاص على سليم بعد ان عرف انه من دين الفريق (الاخر) ...

سليم يتزف ... يتزف ...

نديم لا يدري ان سليم يتزف دمه هو ... ولا يدري ان رب عمله الذي لم يدفع راتبه منذ اشهر شريك لرب عمل سليم الذي لم يدفع له راتبه ايضاً منذ اشهر ...

وان الشريكين هذه اللحظة يشربان الويسكي في احدى شرفات موتي كارلو ويقامران بنقود كثيرة ، هي الرواتب غير المدفوعة للمئات من زملاء سليم ونديم في الشركتين .

كابوس ١٣٧

لم يبع مارون شيئاً منذ الصباح ... كانت الريح متوحشة ، والمطر يطرد الناس عن الرصيف ... ولم يبع شيئاً فقرر العودة باكراً . ولا يدري لماذا خامره احساس بأنه لا يعرف بالضبط دربه ، ولا بيته . لكنه مشى على أية حال . استوقفه حسنين عند الحاجز الاول . قتله لان اسمه مارون ، وبعد أن مات مارون ، نهض وتابع سيره الى البيت . استوقفه جوزيف عند الحاجز الثاني . ولما عرف ان اسمه مارون وانه ليس (معهم) قتله مرتين .

ونهض مارون بعد ان مات ثلاث مرات ، وتابع سيره الى غير البيت وكان يحسر بنشاط عظيم ، وبأنه صار يعرف دربه الى البيت الحقيقي جيداً ! ..

* * *

كابوس ١٣٨

استيقظت ! ...

هذه المرة لم يكن يتحب . لم يكن ينادي باسمي ، وانما كان يهزني من ذراعي بعنف ...

استيقظت وانا واثقة من انه جرب كل وسيلة اخرى قبل ان يدفع به اليأس الى هزّي بهذا العنف . لا ريب في اني كنت غارقة في نومي الكابوسي حتى قاعه ، جثة مثقلة باحجار الارهاق والاعياء ... ربما ظنني جثة فعلاً .. ربما ظنني قد مت ، فتضاعف خوفه . ما الحكاية يا أمين ؟ هل خرج والدك من البرميل ؟ .. لم يكن الفجر قد طلع بعد ، ولا ادري ما اذا كنت قد نمت ثابتي ام ساعتين ... امين يحمل شمعة بيده ، وفي ضوء نورها الشاحب أرى بوضوح عرقاً غزيراً يتزف من مسام وجهه ... تراه سيصاب هو أيضاً بجلطة ؟ يا إلهي .. لا اريد جثة ثانية في البيت ! . ليس الليلة على الاقل ...

قال امين : ارجوك .. انني خائف .. اسمحي لي بالنوم في الغرفة معك .

سألته : ولماذا لا تنام مع الخادم ؟ لان ذلك ليس « حسب الاصول » اليس كذلك ؟ حسناً : تستطيع النوم اينما شئت ولكن لا توقظني الليلة ثانية اتوسل اليك ان تدعني انام كي اكون قادرة على مواجهة كوارث الغد ... لم يكن بحاجة الى اكثر من ذلك . تكوم على الارىكة ولف نفسه بعباءة واطفاً الشمعة .

لم اتم سريعاً ...
شعرت بحاجة للضحك ... لا ادري لماذا تذكرت الافلام الرديئة ، والافلام العربية
(العاطفية) التي تلقى اقبالاً جماهيرياً .. في موقف كهذا يفترض ان يقع البطلان في
الحب .. وان يتبادلا الغرام تحت شعار الخوف وان يكون اسم الفيلم مثلاً : امرأة
وثلاثة رجال ! .

وان يقتتل الرجال لأجلها ، بينما تقضي هي وقتها في الغناء امام النافذة الموصدة ،
او الصلاة كي ينتصر حبيبها على كيد اعدائه ..
وها نحن الآن ...

امرأة ورجلان وجثة ... وانا لعب الادوار كلها ما عدا دور الانثى ... انا اقود
حملة توزيع الجثث ، ودور تعزية المنكوبين وتطمين الخائفين ...
في الافلام (الجماهيرية) لا يتسلل رجل إلى غرفة انثى إلا ليغتصبها أو ليطارحها
الغرام في مشهد تسيل فيه بعض الدموع وتتمزق بعض الملابس .. وها نحن في فيلم
الحياة ، والرجل يتسلل إلى غرفة المرأة لانه خائف .. وهو حتماً عاجز عن امتلاك اية
امرأة إلى ما بعد ستة أشهر من الراحة على الأقل ! والدموع قد سالت لكنها دموعه هو ...
ما أشد ما يظلم الفن الرخيص المرأة .. والمأساة ان المرأة هي المشجع الاول لهذه
المهازيل ، بإقبالها على هذه الأفلام وذرفها للدمع طوال فترة العرض ... متى تكتشف
المرأة ذاتها ؟ ... متى يكفون عن تعهير الحياة وتزييفها ؟ .
همس امين : هل تسمعين ؟ انه يقرع غطاء البرميل .
زجرته : انه صوت الريح .
— انها الجثة .
— انها الريح .

* * *

كابوس ١٣٩

جاع (المسالمون) و (المحايدون) . وضائق صدورهم بالبرامج التلفزيونية المتكررة
والسهر بين ثنائيات الزوجات وزعيق الاولاد وسيمفونية الرصاص في بيروت .
قروا الخروج في مظاهرة بشارع الحمراء . ساروا طويلاً يحملون شتى الشعارات
بشتى اللغات . وكل منهم يشرح نظرياته السياسية عن الوضع (المتفجّر) .

أمطرت السماء ، فتحوا مظلاتهم الثمينة وتابعوا مظاهرتهم تحت المطر .. صرخوا ،
سكتوا ، تعبوا ..

* * *

لم يطلق النار عليهم أحد .
وصلوا إلى (السوبرماركت) حيث أجود المآكل المستوردة . دخلوا إليها ليتزودوا
ببعض الأكل .
كانوا يتدافعون ويشتم بعضهم بعضاً بالانكليزية والفرنسية ، وكل منهم يصصر على
الدخول قبل الآخر ... وقد شهروا دفاتر شيكاتهم ...
وأخيراً صاروا جميعاً في الداخل .
وجدوا الرفوف فارغة ومطفأة الأنوار . لا ويسكي لا حليب . لا جبن . لا خبز
لا شوكلاته . لا بسكويت . لا « اسكالوب » . لا « باتون ساليه » ، لا (بتي فور)
لا شيء .
فعادوا يشتمون بالعربية .

* * *

وحده جناح معلبات الحيوانات الليفة كان ممتلئ الرفوف ... ومضاء بأنوار
وهاجة ...
وكانت فيه مئات من علب (الكونسروة) الخاصة بإطعام الحيوانات الليفة المزففة ..
معلبات فيها لحوم خاصة للقطط (شخت) . معلبات خاصة بالكلاب . كهريسة
أمعاء الخروف مع بعض أوساخها بحيث تتلاءم وذوق الكلاب . ومعلبات حرقف مذاق
لحومها ، بحيث تتناسب مروورته او حموضته أو لذعة عفونته مع أذواق القطط والكلاب
المزففة والمدللة ..
كانت هناك أيضاً حبوب خاصة بالعصافير والدجاج والفئران البيض التي يهوى
بعض الأثرياء الانفاق عليها .
ولم يكن في « السوبرماركت » اي شيء آخر غير الاطعمة الخاصة بالحيوانات
الليفة . وبدأ أفراد مظاهرة (المحايدون) يتأملون صور الحيوانات الضاحكة على العلب ،
راضية بوجبتها الدسمة الخاصة بها .. لا مبالية بأي شيء آخر ...

جمدوا أمام علب الأكل وابتسامات الحيوانات . ارتسمت الدبرة في الوجوه ومرت لحظة صمت تام ...

* * *

وفجأة ، انقضض أفراد مظاهرة (المحايدین) و (المسالمین) على رفوف معلبات الحيوانات ، وتشاجروا من أجل شرائها ، وكل منهم يحاول الحصول على أكبر كمية ممكنة ...

خلال دقائق ، فرغت رفوف جناح الحيوانات كلها ...

* * *

لم ينتظروا حتى يدفع كل منهم ثمن ما حمله ، لم ينتظروا حتى يصل كل إلى بيته . على الأرض جلسوا . على بلاط (السوبرماركت) . لم يجلسوا بالضبط وانما أقعوا على أربع كما تفعل الحيوانات الأليفة والدواب حين تأكل ، وبعد ان فتحوا العلب ، بدأ كل منهم يأكل من علبته ويلعقها بلسانه بينما استند إلى الأرض على يديه وركبتيه كما يفعل أي قط يستمتع بوجبه ...

وحين انتهوا ، لم يدفع أحد ثمن ما أكل وانما اكتفوا بهز اذنانهم بحماسة للبائعات الجالسات أمام الآلات الحاسبة ، كما لعقوا أصابع صاحب « السوبر ماركت » شكراً ...

* * *

وغادروا « السوبر ماركت » وهم يمعمون ويعيرون ويزقرون ...

ولم يعد أي منهم يشرح نظرياته السياسية حول الوضع ...

ولم يعد أي منهم يذكر أي مشكلة من المشاكل التي كانت تقلقه ...

كانوا في حالة تسامر وثرثرة ، وأصوات الزقزقة والعواء والمواء عالية جداً ... كانوا راضين عن وجبتهم الدسمة ، لا مبالين بأي شيء آخر غير الوصول إلى كراسيهم الهزاة ، واللحاق بموعد أفلام (الميكسي ماوس) والكارتونز بالتلفزيون .

وعندما يحين موعد نشرة الأخبار عن عدد القتلى والجرحى ، فسيكون كل منهم قد راح في سبات عميق ..

* * *

تجمعت القطط والكلاب الشاردة تتأمل مظاهرتهم بذهول ، وتنصت إلى مواثيمهم

وعواثهم وزقزقتهم . وتوقف رف من الطيور يرقبهم بدهشة كما خرجت القمران من
جحورها وتأملتهم طويلاً بعيونها الضيقة الحزينة ...
وحزمت قطعة حقائبها بذيلها .. وقررت الهجرة إلى الافق .

* * *

كابوس ١٤٠

أخي شادي جالس في ركنه بالسجن . لم يبارحه منذ وصوله . لم يحدث انساناً في
السجن . لم يرد على مخلوق . الجميع يتوهمونه اخرس واطرش .
انه يشعر بقرف لا حدود له .. لا يستطيع ان يفهم كيف يسجن انسان دون ذنب .
لا يستطيع ان يفهم لماذا يلقي به في مكان قلر كهذا ... لا يستطيع ان يفهم كيف يتقبل
السجناء طعامهم البائس . وكيف يتبادلون النكات ، والود ، والشجار ، والضرب
الشرس الذي يمتقه كما يمتق كل ما يمت إلى العنف بصلة . ويمارس بعضهم الجنس
ليلاً مع الآخر بينما يفوح مزيج من الرائحة النتنة ..
انه يحلم ببلد آخر ... بوطن آخر .. يكره هذا المكان .. ويشعر بأنه مثل نبتة قطعت
فاس ما جذورها . وها هو مستند كعادته إلى ركنه المعتاد من جدار السجن المكسو
بالطحالب والقرف . مسترخ كنبته بلا جذور . يحلم بالرحيل إلى استراليا او القطب
الشمالي او المريخ أو كوكب بلا عنف ... ولولا هذا الحلم لقتله اليأس ..
جاء أحدهم وصفعه كالعادة . لم يبال بأن يرد الصفعة أو لا يردها أو يشكو أو لا
يشكو . اكّد السجين : انه مختل عقلياً . انه بحاجة إلى مصحح لا إلى سجن . بالنسبة لهذه
المدينة التي فقدت رشدها صار رفض العنف عاهة !

وحتى حينما قام السجناء بمحاولة للهرب لم يبال .. وحتى حينما نجحت المحاولة لم
يبال .. لقد هدموا الجدار واضرموا النار في المكان فظل جالساً في موضعه بلا حراك حتى
كاد يخنق بالدخان . فغادر القاووش إلى قاووش آخر ... ثم دخل السجناء فطرده
قائلاً : لقد هرب السجناء كلهم . اهرب يا وجه النحس وإلا اعدوا تعمير السجن
بسبيك واعادوني حارساً لأحرسك .. اهرب يا وجه النحس ..

وقام شادي مثاقلاً وغادر السجن وهو يمشي ببطء من نسي المشي . في السجن كان
لا يتحرك من موضعه إلا حين يذهب لقضاء حاجة في طرف الغرفة الآخر المدعو

(يasmine) ..

رصاص يطلق على السجناء الفارين . الجميع يركض . هو يسير ببطء متضيقاً . لم يشعر بالحاجة إلى وداع اخته . إلى وداع أحد . شعر بالقرف الموجه من ذلك المدعو (وطنه) وكان حلمه الوحيد مسلطاً على الأفق ورغبته الوحيدة هي في الهرب بعيداً بعيداً إلى وطن آخر مسلم وطيب وانساني خلق لمواطن مثله يكره العنف والقوضى والأصوات العالية . ويحب الروتين والأطفال ورائحة الطبخ التي تفوح من عتق زوجة بدينة وقانعة . لم تدب الحياة في أوصاله إلا حين شاهد الباخرة . قرر أن يتسلل إلى سطحها ويختبئ .. سيرحل معها إلى أي مكان في العالم .. أي مكان إلا هذا الوطن البائس ... انه لا يريد ان يكافح .. لا يريد ان يقاتل .. لا يهمه الحق او الباطل .. يهمه ان يعيش في سلام ويموت في سلام ...

يهمه ان يسترخي في أي مكان بالعالم حتى ولو كان اسرائيل .. وقد سمع الكثير مؤخراً عن معاملتها (الطيبة) لسكان القرى اللبنانية المتاخمة لحدودها . صحيح ان أعنى القتل في السجن استنكروا مثل هذه الاخبار عن (طيبة) اسرائيل ، ووجدوا في ترويحها فخاً للمواطن اللبناني ، ودرباً قصيرة للسلامة الآتية التي سيستبعا بلا ريب عدوان كبير ومحاولة احتواء بالاكراه .. اما هو فلا تهمه إلا سلامته الشخصية كأبي فأر في الحقل !

« سأهرب بعيداً » هكذا كان يردد لنفسه وهو مختبئ خلف البراميل على سطح الباخرة المزدحمة ..

ثم دوت أبواق .. وسرت الهمسات على سطح الباخرة ، والمخاوف ، والركض المدعور ، واقتربت منهم عدة مراكب حربية .. وفهم ان اسرائيل تختطف الباخرة .. قالت اخته مرة : انك لا تستطيع ان تعيش في سلام وتموت في سلام ما دام في الدنيا ظلم .. أي انسان مظلوم في أي ركن من الكرة الأرضية هو انت ، ومن واجبك تجاه نفسك ان تحارب الظلم ، فالهرب الفردي مستحيل .. لكنه لم يصدقها .. تلك المتفلسفة الغارقة في ترجمة الكتب (الثورية) تضجره وتقلقه .. وهو يهرب بعيداً عن ذلك كله .. « الهرب الفردي مستحيل ؟ » آه ما اسخفها اخته .. أجل لن يخاف من اسرائيل . لقد قالوا له بان الاسرائيليين يعاملون سكان القرى الجنوبية جيداً ويشترون محاصيلهم .. لـ

بلتغه ذلك أحد السجناء وهو سيصدقه وسيعيش بسلام حتى في اسرائيل . وسيثبت لاخته (المتفلسفة الثورية) ان الحرب الفردي ليس مستحيلاً ، و ..
... وخيل اليه أن رأسه اصطدم بشيء .. ان شخصاً ما اكتشف مخبأه وضربه بعقب مسدسه .

وحين استيقظ سمع المحقق الاسرائيلي يقول بعربية مكسرة : هذا واحد من الارهابيين خذوه واقتلوه فوراً دون محاكمة ودون معرفة أحد . اسمه على أية حال غير موجود في قائمة الركاب .. ولن يفقده أحد ..
فقط لحظة اطلقوا الرصاص عليه وعى انه كان مذنباً وأن الألوان قد فات ... ووعى انه لا سلام لمن لا يشارك في صنع السلام .. وان (الود) الاسرائيلي هو ابتسامة على شفتي مصاص دماء ، يخفي خلفها اسنانه ..
و ... وفات الألوان ...

* * *

كابوس ١٤١

المذيع قد وصل إلى مكان عمله ، وهو بحالة يرثى لها ...
لقد اضطر — كالعادة — للمرور بحي الصنائع وهناك اطلق قناص عليه النار فاختطأ رأسه وأصاب رأس سيارته كاسراً زجاجها الأمامي ... هذا بالاضافة إلى القنبلة التي انفجرت بعد مروره بنصف دقيقة في شارع الشيخ بشارة الحوري ، والقصف العنيف طوال الليل حول بيته الذي يتوسط الدرب بين الشياح وعين الرمانة ! ...
وكان ذلك البؤس الصباحي يتكرر كل يوم منذ أشهر ، بصورة أو بأخرى .
تمالك المذيع نفسه .

استعد لقراءة نشرة الأخبار الصباحية .
يعرف جيداً ان مئات الآلاف من الناس الذين لم يغمض لهم جفن في يروت لشدة القصف طوال الليل قد تجمعوا حول المذيع منصتين إلى ما سيقول ، عاملين بإرشاداته عن حالة الطرق ، والطرق الآمنة التي يستطيعون سلوكها ، والطرق غير الآمنة التي يقبع الموت فيها بانتظار اي عابر سبيل ...
وكما في كل صباح ...

فوجيء بالنشرة التي عليه ان يقرأها ...
انها تتحدث عن ليلة من الهدوء (!) المخيم على العاصمة ، وعن الشوارع كلها
بصفتها ، سالكة وآمنة) ، بل وتتضمن دعوة صريحة للتجار للنزول إلى المدينة ومباشرة
أعمالهم ...

وبدأ يقرأ ...
كان يعرف ان الرفض معناه قطع رزقه ، ثم قطع عنقه ، ثم قطع طريق المستقبل
على أولاده ، ثم قطع الماء والكهرباء عن أرملته ...
تابع القراءة ...

وأمام عينيه تتلاحق صور الخارجين من بيوتهم وفقاً لإرشاداته ، المقتولين في الشوارع
دونما ذنب سوى تصديقه ...
تابع القراءة ...

لكنه أحس بذلك المرض الغامض في حنجرتة يشتد عليه ...
ففي اليوم الأول تشاجر مع رئيسه المباشر ، بل ورفض قراءة النشرة . لكن الرئيس
الكبير برر له ذلك بضرورة المحافظة على (الروح المعنوية) للشعب ... ولكن ماذا عن
(الروح) ؟ ... ما جدوى هدر أرواح الناس بحجة المحافظة على أرواحهم المعنوية ؟ ...
في اليوم التالي تشاجر مع رئيسه أيضاً ، ولم يقرأ النشرة .

في اليوم الثالث ، كان قد جاع ، فقرأ النشرة . ومنذ ذلك اليوم أحس بأعراض
مرض غريب في حنجرتة ... خيل إليه ان صوته قد بدأ بالتبدل ، وانه صار كبير الشبه
بصوت خروف ... ان خللاً ما قد أصاب أعصابه الصوتية أو عضلاته ، وبدأ صوته
يتحول يوماً فيوماً من صوت انسان إلى صوت خروف ...

وصار هذا المرض يشتد عليه يوماً بعد الآخر ... ذهب إلى الطبيب الذي سبر حنجرتة
طويلاً وفحصها تحت مختلف الاضاءات والشعاعات البيضاء والحمراء والزرقاء ثم قال له
ان حنجرتة بخير وان أعصاب رأسه هي التي ليست بخير ، وانه ينصح به بإجازة .
إجازة !

كما لو كان ثرياً . من اين للكادحين إجازة ؟ وهل يرضى الجهاز الهضمي لأطفاله
بأخذ إجازة من الجوع ؟ ..

وطبعاً ذهب إلى عمله .. وقرأ النشرة كما هي ... في اليوم نفسه انتابته امراض أخرى .. لم يكن صوته وحده الذي صار كصوت الحروف ، بل انه لاحظ نمو الشعر في جسده ورأسه بصورة كثيفة لم يعهدها من قبل .. وحين تحسس رأسه اكتشف ان قرنين صغيرين ينبتان تحت شعره كقرون الخرفان .

كتم السر عن الجميع حتى عن زوجته ، لكنه كان يسألها باستمرار : هل تلاحظ تبديلاً في صوته ؟ وكانت تكرر باستمرار : لم يتبدل شيء فيك ، كل ما في الأمر أن أعز مابك متعبة .

يتابع القراءة ...

بقيت الأسطر الأخيرة التي يؤكد فيها ان الدروب كلها سالكة وآمنة ... أحس بأنه سفاح ينصب الشباك في شوارع المدينة ليسقط فيها الضحايا الأبرياء ... لا ... ليس ذلك بالضبط .. انه قد يكون أداة الجريمة ، لكنه بريء براءة المسدس . القاتل هو الذي يسجن لا المسدس ... أجل ! ... شعر بأنه ذلك الطائر النادر الشدو الذي يضعه الصيادون في الشباك المدبقة ليغني ويمجذب صوته اسراب الطيور البريثة إلى حتفها .. لم يعد قادراً على متابعة القراءة ..

يذكر الجوع الذي ينتظره ، والعقاب والتشريد ... فيقرأ ويفاجأ بصوته وهو يصرخ (ماع .. ماع ..) كأني خرووف في القطيع . وقبل ان يستيقظ مهندس الصوت من ذهوله ويقطع البث ، سمع آلاف المواطنين مديعهم المفضل وهو يحدثهم عن حالة الطرق صارخاً : ماع .. ماع .. ماع ... ماع .. وفهمت بقية الخراف .

* * *

كابوس ١٤٢

همست في الظلام ، وأصدااء الانفجارات تهز المكان : ان شيئاً غير عادي يسور حولنا ... شيء خطير ومروع كالزلازل ... ضمها اليه : انت على حق . همست : منذ أشهر وانا اكرر لك ذلك .. وانت لا تصدقني ... وتبحث عن تفسيرات بسيطة وعادية للشيء المركب والخطير الذي يقع .
— لقد كنت على حق ...

— انني خائفة ومذعورة .
— وأنا أيضاً ...
— اشعر برغبة في الهرب ...
— وأنا أيضاً ...
— لن يكون بوسعنا الهرب ما دام باب المخزن مقفلاً هكذا .
— وصاحب الدكان لم يأت منذ زمن بعيد .. والعاملات أيضاً .. لا أدري ماذا يحدث بالضبط ...
كانت الريح تصفر في شارع الحمراء امامهما ، وقد اطفئت اضواؤه ، وثمة زخات مطر شرسة تجلد الليل وواجهة المخزن الزجاجية عبر القضبان المربعة الضيقة المسدلة فوقها من الخارج ... لا سيارة تمر ... لا مخلوق ... لا هرة ... لا طائرة ... لا مشر ... لا متسول ... فقط مصفحات لرجال الأمن تشق صدر الصمت والظلام وتمضي مخلفة الشارع لاصداء الرصاص والمتفجرات ...
كانت هي ما تزال ترتدي مايوها (بيكيني) من الحرير المرقط كلون جلد النمر ... وكان هو يرتدي مايوها من القماش ذاته ... كانا بلباس الاستحمام والشتاء يقرع أبواب شارع الحمراء ...
همست : منذ خلعت شجرة الرصيف اوراقها ، ولم تبدل لي عاملة المخزن هذا (المايوه) ، عرفت أن شيئاً غامضاً يدور في المدينة ...
أجاب : ظننت صاحب المخزن مشغولاً بغزله مع العاملة التي كانت تتولى تبديل ثيابنا ... لم أكن أدري ان الامر اخطر من ذلك ...
— كنت اعرف ان الامر اخطر من ذلك ... هربي الليلي الى ارضفة الحمراء اطلعني على اسرار كثيرة ... كان البرد شديداً ، وكان كل منهما يلصق جسده البلاستيكي بالآخر في محاولة فاشلة للدفع ... لكن البرد لم يكن تماماً ما يضايقهما ... همست هي : البرد محتمل .. لكن ما سيقتلني هو البعد عن الانظار .. عن انظار الناس .. انني بحاجة الى ان يقف الناس في الخارج ، ويتأملوني ، والى ان تشهق الفتيات اعجاباً بالثياب الثمينة على جسدي البديع ، ويدخلن لشراؤها متوهمات انها ستبدو على اجسادهن السمينة كما تبدو على قامتي الرشيقة ، وانهن يدفع الثمن الملصق على صدري سيبدون مثلي ... اشتاق

الى الاضواء المسلطة علي وانا اقف في الواجهة وما من عابر سبيل قادر علي ان يمنع نفسه من التحديق بي ...

قال لها : وانا افتقد ذلك كله .. منذ اطفأوا انوار الواجهة توجست شراً لكنني ظننت صاحب المخزن قد هرب مع حبيبته العاملة ... لم اكن ادري اننا نقف على أبواب تبدلات كثيرة نعجز عن فهمها نحن شعب الواجهات الزجاجية .

كان ضوء خافت من الفجر قد بدأ يتسرب عند الافق ، وكما في كل ليلة انفلتت دمية الواجهة من بين ذراعي رفيقها ، وعادت لتقف مسمرة في موضعها بواجهة العرض للمخزن الكبير ..

منذ شتاءين وريبعين وصيفين وخريفين وهي لم تبدل وقفتها . انها لا تعرف اسماء الأيام ولا الشهور ، ولكنها ترقب تبدل الفصول على شجرة الرصيف ، وثياب المارة والجالسين في المقهى الكبير المجاور لواجهة المخزن على ناصية الشارع ... وتعرف الفصول من نوع الازياء التي تلبسها إياها عاملات المخزن ثم يغرسن فوقها الثمن بدبوس (يؤلمها قليلاً لكنها لا تشكو) ، معطف الفيزون شتاءً ، فساتين الصوف خريفاً والمايوه صيفاً .. واحياناً تكون العاملة في حالة نفسية سيئة ، فتقتلع لها يداً في محاولة ادخال احد الاكمام مثلاً ، لكنها ، كدمى واجهات العرض جميعاً ، تحتمل اي شيء متابل الظهور للعيون في ابهى حلة .. وكانت سعيدة بموضعها في شارع الحمراء : موقعها ممتز وسط الشارع تماماً .. والآلاف من المعجبين والمعجبات يمرون كل يوم امامها ويقفون طويلاً لتأملها .. بل انها كانت اكثر سعادة من الفتيات الجالسات في المقهى المجاور ، اللواتي يؤدين المهمة ذاتها تقريباً . اما هي فهذا عملها كدمية واجهة ، ولذا فهي تقف جامدة ساكنة عارضة مفاتنها ليل نهار ، اما فتيات المقاهي ، فلا بد لهن من الجلوس في فيتريناتها وواجهاتها الزجاجية متظاهرات بأنهن يشربن القهوة ويدخن السجائر ... وهي تحمل على صدرها تسعيرة الثوب الذي ترتديه ، اما هن فيهمسن بتسعيرة اجسادهن للزبون همساً ... لماذا لا يفعلن مثلها ويسترحن ؟ لماذا لا تعلق كل واحدة تسعيرتها على جسدها كما تفعل هي ؟ . كانت تقضي أيامها في الاستمتاع بنظرات الاعجاب ، وتحلق بعينيها الزجاجيتين نائتي النظرة الى كل ما يدور في شارع الحمراء امامها ، وفي المقهى المجاور بالذات وواجهته الزجاجية كواجهة مخزن .

انسلت من ذراعيه وعادت الى وقفته بالواجهة .
قال لها : لماذا هربت ؟ .
— لقد بدأ الفجر يطلع ...
— ولكن احداً لن ينجي ... منذ ايام لم يمر بنا مخلوق ، غير سيارات الاسعاف
المعولة ...

ولكنها لم تجب . كانت دمية واجهة (محافظة) . وهي تصر على تقاليد « فتيات
الواجهات » ... وما لا يعرفه سكان المدينة هو ان اكثر ما فيها من دمي وتمثيل ، يتحرك
ليلاً وينطق ويعيش حياته الخاصة به وانهم يستولون على المدينة حين يرحل عنها اهلها
الى مدينة النوم ، ومع لمسة الفجر الاولى يعود كل الى (عمله) بواجهة المخزن او قاعدته
الزجاجية قبل ان يرجع سكان المدينة من بلاد النوم ويعاودوا استيلاءهم عليها ...
شعرها من الحرير الاسود اللامع جداً . واهدابها طويلة تحيط بعينيها الشاسعتين
الخضراوين المصنوعتين من زجاج نقي ... وقفت في ركنها بالواجهة ، وقد رفعت يداً
وانزلت أخرى ، ووقف هو بالقرب منها وقد وضع يديه على خصره .. قالت له مؤنبة :
اتخذ وقتك الاصلية فقد يأتي صاحب المخزن فجأة ...

ولكن احداً لم يأت ... وطلع النهار وبدا كثيباً ، وعلى الرصيف مرت قوافل من
النساء المتعبات والرجال الذين يبدو الغم على وجوههم .. انتعشت قليلاً ، فالبرد لا يخيفها
ولا الظلام ، وانما البعد عن انظار الاعجاب .. ولكن احداً لم يلتفت اليها ... كانوا
يبدون على عجل من امرهم ، كأنهم خارجون للتو من مأتم مجرم خارج على القانون ...
كانوا يتلفتون بخوف ، ويحدقون الى الاعلى من آن الى آخر كأنهم يخشون شيئاً مختبئاً
في الشرفات والنوافذ ..

همس : ماذا دهي أهل هذه المدينة ؟ زجرته : لا تنس تقاليدنا ... لا كلمة في
النهار ... وفر تعليقاتك لرجعة الليل .. قال بصوت اكثر ارتفاعاً : إن احداً لن يسمعنا ..
ألا تسمعين هذه الانفجارات العالية المدوية ؟ ...
لم تجب .

اول مرة سمعت الانفجارات ، ظنت ان اهل المدينة كعادتهم يطلقون الالعاب
النارية ... ولكن ، لا ... ليس تماماً ..

لقد حدثت ان خطأً ما يدور منذ البداية ... منذ كان المتسولون يتكاثرون على الرصيف امام واجهتها الزجاجية ... ومنذ كان بعض الرجال والنساء يقفون محدقين بها وبرفيقها بنظرات غاضبة ويقرأون الاسعار المكتوبة على صدريهما ثم يهزون بقبضاتهم مهددين ويمضون باقدامهم العارية ووجوههم المرهقة الغاضبة ...
اجل ! لم يكن الجميع سعداء برؤيتها ... حتى البائعات كن يشهن بالحسرة احياناً اثناء عمليات لباسها الثياب الثمينة الجديدة ، وكانت تلحظ ان بعض ثيابهن مهترى وممزق ...

ومع ذلك كانت هنالك سيدات يفرحن كثيراً برؤيتها ، بل ان بينهن من كانت تحضر من بلدها العربي خصيصاً لشراء كل ما يوضع على جسدها .. ولكنهن تناقصن هذا الصيف كثيراً ...

من موضعها في واجهة العرض الزجاجية للمخزن كانت تستطيع ان تلحظ ان شيئاً بدأ ينفجر ... وان ما يدور في واجهة العرض الزجاجية للمقهى له ايقاعات اخرى جديدة ... فمن موضعها تعلمت ان تقرأ كلمات الناس من حركات شفاههم ، واكثر الاحاديث في المقهى صارت تدور حول السفر الى لندن او باريس وادخال الاولاد في المدارس هناك ، وقوانين الهجرة الى استراليا وكندا وفنزويلا ... وحول الجولة الاولى والثانية ووقوع قتلى في غير حلبات التزلج على الجليد او الرقص ! ..
بل انها تذكر ليلة معينة بالذات ...

كان صاحب الدكان ينتظر قدوم زبون عربي مهم جداً ، يشتري بمئات الالاف من الليرات ، ويستحق ان ينتظره حتى الفجر ! .. تأخر الزبون ، وهتف يقول انه في اجتماع مهم ، ولكنه سيمر بعد الاجتماع لشراء الهدايا لاسرته لانه سيرحل مبكراً جداً في الصباح التالي .

كان هذا على الاقل ما سمعت التاجر يقوله لزوجته على الهاتف ، مضيفاً انها فرصة نادرة لتعويض خسائره بعد ثلاثة اشهر من البيع المتردي ...
وتأخر الزبون ...

وغرق التاجر في نومه على الطاولة ... وكانت اضواء الواجهة مطفأة . لم يعودوا يتركونها مضاءة منذ اسابيع طويلة ، وهي لا تدري لماذا .. لكنها اغتنمت الفرصة وقررت

ان تخرج قليلاً لترى ماذا يدور في المدينة .. صحيح انها دمية واجهة محافظة ، لكن المرء لا يملك الا ان « يتلصص » على الحقيقة حتى ولو لم يكن بروميثيوس وانما مجرد دمية واجهة .

غادرت مكانها في المخزن بعد ان لفت ثوباً بسيطاً حول جسدها ... لم تكن هذه اول مرة تغادر مكانها في الواجهة لتتجول وتجلس في واجهات المقاهي كما تفعل اكثر الفتيات ، ولكن احداً لا يلحظ انها دمية واجهة ، للشبه العظيم بينها وبين اكثر فتيات مقاهي شارع الحمراء ... ثم ان احداً لا يتوقع من فتاة واجهة ان تبرح مكانها ، لذا فان العاملات لا يكلفن انفسهن عناء مراقبة (دوامها) كما يراقبن بعضهن بعضاً وتشهي كل منهن بالآخرى .. ولانها دمية واجهة ، يتوقع الجميع ان لا تبرح مكانها ، ولذا فان احداً لا يلحظ غيابها ! ...

اجل ! تذكر جيداً ذلك المساء ...

سمعت صاحب المخزن ينبه العاملة الى ضرورة تبديل ثيابها في الغد من المايوه الى فستان خريفي .. وعرفت ان الصيف قد اشرف على نهايته .. هكذا انبأتها ايضاً لسعة برد خفيفة صفعتها حين بارحت مكانها تحت الاضواء الكشافة الحارة في الواجهة الى عتمة الشارع النسبية ..

كان شيء ما قد تبدل في شارع الحمراء .. هكذا احست منذ الوهلة الاولى . كانت اضواء اكثر واجهات المخازن مطفأة ، ورفاقها من الدمى يبكون في الظلام قهراً وجوعاً الى نظرات الاعجاب التي يتكسبون بها (كسيدات المجتمع ايضاً) ؟ هكذا تساءلت بحرقه . انها لا تجد فرقاً كبيراً بينها وبين اكثر نساء هذه المدينة ... كل ما في الامر انهن يحملن من آن الى آخر وينجبن الاطفال وهي لا تفعل ... اما ما تبقى فيبدو لها متشابهاً تماماً .. انها مجرد سيدة مجتمع لا تنجب الاطفال .. لا .. بل هي تعمل ، تقف ليل نهار لتعرض ثوباً ، اما هن فيستلقين ممددات في الفراش اكثر اوقاتهن .. هكذا سمعت العاملات يتهايمن عن الزبونات .. جلست في واجهة أحد المقاهي وبدأت تنصت الى احاديث الناس حولها .. كانوا يتحدثون عن السفر والهجرة ، والهرب من الرصاص الطائش وغير الطائش ، وعن المدارس التي يبدو انها لن تفتح هذا العام وعن القتال والجرحى ، كان باعة الفل والياسمين يحاصرون رواد المقهى ... ولا احد يشترى لامرأة

عقداً من الياسمين . كانوا يتتهرون الباعة ، ولم يكن الباعة الفقراء يبيعون بقدر ما بدا
انهم يهددون المارة ! عقد الياسمين تحول الى صرخة تذكير بالفقر وزهرة القل بدت لها
حمراء كأنها مغموسة بدم احد افراد أسرة البائع الصغير ...

جاء الجرسون . طلبت فنجاناً من القهوة . كانت تعرف انها لن تشربه ، فدمى
الواجهات يتغذين بالنظرات ولا يتعاطين (الاغذية) الصلبة او المائعة .. جاءها بالقهوة ...
كانت المنضدة تتأرجح .. والكرسي ايضاً .. اعتذر الجرسون وقال ان احدى ارجل
الطاولة قصيرة قليلاً ، وحاول تثبيتها بادخال بقايا علبة سجائر فارغة ، لكن ، حتى بعد
أن ثبتها شعرت بانها تتأرجح .. لا الطاولة وحدها ... المقهى بأكمله .. الشارع بأكمله
يتأرجح دون ان يلحظ ذلك أحد أو يسارع الى اسناده بصخرة مثلاً ... كان كل شيء يتأرجح ،
والارض لم تكن صلبة تماماً وانما بدا ان انهيارات تحتية بدأت تقع وان كل شيء سيسقط
بين آن واخر الى هوة عميقة ... لاحظت ايضاً ان اكثر النسوة كن يرتدين السواد ...
وان رائحة احراق القمامة هي رائحة « الحمراء » ، وسحابة رمادية حزينة نفاذة الرائحة
تلف المراثيات كلها كأنها زفرات الشارع . اجل ! منذ اسابيع لم تر سيارات جمع القمامة
تمر امام واجهتها ...

مرت بها ثلاث نساء يرتدين السواد ، فتذكرت ان طلبات الزبونات كانت مؤخراً
منصبة على شراء الثياب السوداء اللون . ١. كأن الحداد هو ضيف الصيف ...
تقدم منها شاب ودعاها الى السهرة . قالت : لا استطيع ودون ان يبالي برفضها ،
جر مقعداً وجلس الى طاولتها وهو يقول بأسلوب لم تعرفه في جميع الشبان الذين سبق
وغازلوها اثناء هربها السابق من الواجهة : اسمعي ... المدينة تحترق ، والموت سيصيبنا
في اية لحظة . لذا لا لزوم للمقدمات والمطولات . انت جميلة ، واريد ان تقاسمني
فراشي الليلة . ما هي تسعيرتك ؟

ذهلت . لم تجبه . لم يكن لديها مانع من مرافقته الى الفراش لكنه سيحرقها اذا اكتشف
انها مجرد « دمية واجهة » لا « انثى » . صحيح ان الفرق ليس كبيراً بين فتيات شارع
الحمراء ودمى واجهات المخازن ، وانها يوماً فيوماً تزداد قناعة بذلك ، الا انها تريد
العودة بأسرع ما يمكن الى المخزن قبل أن يغادره صاحبه ويلحظ غيابها ...
تابع الشاب : انت باهرة الجمال كالدمية ... لا ريب في ان اسعارك باهظة ، ولكنك

تعرفين ظروف المدينة .. الشركة لم تدفع لي راتبي منذ شهرين ، لكنني ساحاول ارضاءك .
وايضاً لم تجب .

نهض وهو يشتمها : ايتها الغاية ، المدينة تحترق وأنت تتصرفين كملكة وتساومين ..
الجميع في حالة توتر ... على الطاولة الملاصقة سيدة تشتم الجرسون لانه احضر لها
كأساً من (الدراي مارتي) وقد نسي احضار الزيتونة التي يفترض ان تعوم على سطحه .
الجرسون يتحدث بخشونة لم تسمعها منه من قبل . يصرخ بالزبونة : اثنان من
الجرسونات العاملين معنا قد خطفا . اذا كنت تريدين طعام العشاء فاطلبيه الآن لاننا
سنغلق المقهى في العاشرة تماماً ...

وتقدم من المقهى رجل يطوف بالموائد ويطلب معونة « لجمعية الاعمى الضرير » .
هاجم مقهى الرصيف سرب من المتسولين الصغار ، وكان عدد المتسولين وجامعي
التبرعات وبائعي الفل والياسمين واليانصيب والشيكلس يفوق بكثير عدد رواد المقهى ..
سمعت صوتاً من منضدة مجاورة يقول : هذا اخر موسم ياسمين في شارع الحمراء ...
انتهت مرحلة (الدولتشي فيتا) والحياة الذهبية ليبروت .. ان قشرة الذهب تسقط ،
وعما قريب تظهر الحقيقة ... عادت الزبونة تصر على الجرسون كي يحضر لها زيتونة
تسبح على سطح (الدراي مارتي) .
وغادرت المقهى ...

كانت خائفة ... شاهدت المارة في الشوارع يطيطون في الفراغ كالبالونات ...
شاهدت ان الاشجار مجرد ديكورات ، ورجالاً يتسلقونها ليربطوا الى اغصانها
اوراق الخريف الصفراء ... سمعت امرأة تضحك ، وأحست ان ضحكها مثل وردة
اصطناعية كالحة اللون فوق ثوب أبلاه العتق ... ركضت مسارعة الى مكانها في الواجهة ..
كان صاحب المخزن ما يزال نائماً ... « والزبون » لما يحضر ! ...

ولم يحضر صاحب الدكان في اليوم التالي ! .. غاب طويلاً . جاء ذات يوم ومعه
سيارة شحن وعدد من الرجال ادهشها ان تجده والرجال يفرغون اكثر محتويات
الدكان وينقلونها الى السيارة وهم على عجل من امرهم ويمضون سريعاً دون ان يلتفت
احد اليها او الى رفيقها ... ومن يومها لم يأت احد ... لم يتأملها احد ... نسيها الجميع ...
عابرو السبيل القلائل لم يولوها حتى التفاته ... كانوا دوما على عجل من امرهم ، كل

منهم يتأمل الآخر بنظرة خوف وحذر واستطلاع كما لو كان قادماً لقتله ، ولا احد يلتفت صوبها ..

ثم جاء يوم اطفأوا فيه حتى اضواء الشارع ... وصارت تسمع بوضوح اصوات طلقات وانفجارات مروعة ... ولم يبق لها ولرفيقها في الواجهة غير الانتظار ... انها تمطر ..

هذا ايضاً معناه مزيد من التقلص في عدد المارة ... وحتى سيارات الشحن التي كانت تأنس بها قليلاً لم تعد تأتي لافراغ محتويات بقية الدكاكين المجاورة ... آه ما اتعس حظها ، لماذا لم تكن دمية واجهة في احد مخازن باريس او لندن ، او اي مكان في العالم لا تنطفئ اضواؤه ولا يتقلص زبائنه عن الرصيف ؟ .. انها تمطر ...

هذا معناه ان اليوم باكله سوف يمر دون ان تنال ولو كسرة اعجاب واحدة ... وستموت وتذوي جوعاً الى احتضان الأعين لها ... همس بها : اسمع هدير شاحنة ...

اشتعل الامل في قلبها قليلاً . لعله صاحب المخزن ... انها كدمية مخزن ما تزال تأمل في ان يعود كل شيء كما كان .

توقفت السيارة امام المكان . صاحب المخزن لم يظهر . ظهرت مجموعة من المسلحين . وضعوا شيئاً عند قفل المدخل واشعلوه ثم ركضوا مبتعدين . ادهشتها حركاتهم . دوى انفجار .. لدقائق علا الغبار ولم تعد ترى شيئاً ، ورامها الانفجار الى حيث لا تدري ... فتحت عينيها الزجاجيتين . شاهدت النار تشتعل في رفيقها . والرجال يدخلون الى المكان بسرعة حاملين خزانة النقود الحديدية وهارين بها وسط سحب الدخان ... واختفوا . وحدث ذلك كله بسرعة ، بل في لحظات كالبرق ...

وبسرعة ، نهضت راكضة من المخزن ... ركضت في الشارع الى اول مقهى . كان مغلقاً ... ظلت تركض . كانت الشوارع خاوية ، والاشجار مكومة على الارض ومخزومة استعداداً لنقلها وزرعها في ديكور آخر .. وسمعت صوتاً يقول : انتهت المسرحية هنا ... انقلوا الديكور ، سنقدم المسرحية ذاتها في مدينة أخرى ...

بحث عن صاحب الصوت لتسأله عن اسم المدينة كي تنتقل اليها لكنها لم تستطع

تميزه . وخيل اليها ان كراسي المقاهي الخاوية هي التي تتحدث ... ام تراه صاحب مقهى ما ؟ ..

مرت بالقرن . هناك فقط شاهدت بشراً حقيقيين يرتدون السواد ويضعون نظارات سوداء ويحملون بايديهم عصياً بيضاء طويلة ، وادركت انهم قافلة من العميان بانتظار الخبز .. وما عداهم ، لم تشاهد احداً ، ولكن كل شيء بدا حزيناً ومختلفاً كأن عصا الموت قد مست بطريقة ما ...

القمامة كانت ضيف الشارع الوحيد ، كانت تعلو تلالاً وتفوح رائحتها رغم المطر ، والذباب ، كان كبيراً بحجم الرجال ، وكان يحتل الشوارع مزدحماً حول القمامة ! ... على أكثر الجدران آثار رصاص وقذائف ، تغطيها ملصقات تحمل صور الشهداء وقد حلت محل الملصقات القديمة عن حفلات الرقص والمصارعة والصور الخلية لنجمات ليل بيروت . تأملت صور الشهداء الغضة وكانت وجوههم تشبه صور فتیان في كراس جامعي للتخرج !

وجدت مقهى واحداً يستقبل الزبائن . دخلت سريعاً وجلست . فوجئت بان للجالسين اجساد رجال ورؤوس فئران .. وكانوا يتحدثون كثيراً ويثرثرون باستمرار وهم يحركون اعناقهم الرفيعة داخل الياقات البيضاء المنشأة وربطات العنق ، وكان احدهم يصيح : لقد دفعنا ثمن السماح للفلسطينيين بالدخول الى بلاد « سلالة المردة » ..

وجاء الجرسون ... كان هيكلاً عظيماً تماماً ، وقال لها مشيراً الى رجل ضخم الجثة له رأس فأر طويل الشاربين : اليك مستعد لدفع ليرة . اذهلها ذلك . كانوا يظنونها غانية اجنبية ، ولم يعرض عليها احد من قبل مبلغاً اقل من عدة مئات من الليرات ...

تابع الجرسون : تعرفين ان (رأس) الكرنب ثمنه الآن ست ليرات ، و (رأس) الرجل ثمنه نصف ليرة ، اي ثمن رصاصة ! .. وهكذا ترين ان اسعار اليك معقولة ! ... ومن الافضل ان تقبلي ..

قررت ان تعلن للجميع أنها فتاة واجهة لا فتاة مقهى ، فنهضت واعتلت الطاولة واتخذت الوقفة التي تتخذها في الواجهة اثناء العمل ... رفعت يدها اليمنى وقد فرشت اصابعها وتركت الاخرى تنسدل موازية لجسدها كوقفة راقصة قبل ان تبدأ وصلتها ...

وتحجرت هكذا ...

وانفجر رواد المقهى في الضحك وقال أحدهم : لقد جنت غايات هذه المدينة ..
الشبان يقتلون واحداً بعد الآخر ورزق الغايات انقطع . سيأتي يوم تضطر كل عشر نساء
الى الزواج من شاب واحد .. هذا اذا تبقى حتى شاب واحد حي ... رد الآخر : حالتهم
كحالتنا ... لا قبض ... لا نقود ... وهن يقضين الليل وحيدات ونحن نقضيه مع
زوجاتنا ! .

وغادرت المقهى .. لاحظت ان اسفلت الشوارع كان محفوراً وعليه آثار اقدام
الدبابات . اطبق عليها مسلحون اختطفوها فجأة . كانت تسمع بالخطف من احاديث
الزبائن وها هو يحدث لها . يا للإثارة ! . لا تدري كيف اكتشفوا انها فتاة واجهة من
النظرة الاولى . قال احدهم : سنستعمل هذه الدمية كشافاً للقناصين . سنجعل منها فزاعة
في حقل طيور النار .. تعالوا نجرب هذه الفكرة المبتكرة .
هذه المرة ، لم تفهم شيئاً .

ونقلوها في سيارة الى مكان تجهله . اصوات الرصاص تزداد ارتفاعاً .. توقفت
السيارة . الارض في حالة زلزال . لم تحف . كانت في حالة دهشة . لم تكن تعرف
بالضبط ما سيفعلونه بها ، ولكنهم كانوا يعرفون ! ...
البسوها ثياب مقاتل ومعطفه ، ودقوا قدميها بالمسامير على خشبة ذات عجلات ،
ثم ربطوا الخشبة بحبل طويل ، وقال احدهم وهو يدفع بها من خلف المتراس الى شارع
خاو تماماً الا من الانقاض . هذه الدمية ستنقذ حياة الكثيرين منا ... عن طريقها سنكتشف
بدقة موضع القناص اللعين ... ونهاجمه

ولم تكد الخشبة تركزض بها الى وسط الشارع حتى أطلق احدهم عليها رصاصة
اصابتها في رأسها تماماً . لم تتألم ، وطبعاً لم يسيل الدم ، لكنها سمعت النار تفتح من خلف
المتراس باتجاه المكان الذي انطلقت منه الرصاصة نحوها... وشاهدت رجلاً يسقط عن سطح
مرتفع .. وسمعت اصواتاً تأتي من خلف المتراس : اللعين ، لقد اصيبناه ... وكان قد
اغتال عشرة من رفاقنا ...

احست بنوع من الغبطة التي لم تعرفها من قبل ... احست بأنها أدت شيئاً مختلفاً عن
عملها كفتاة واجهة ... شعرت ببعض السلام الداخلي ، وحتى حين اكتشفت ان النار

قد شبت فيها لم تحزن من اجل جسدها البديع ... وقررت انه كان في داخلها شيء لم
تكتشفه طيلة حياتها كفتاة واجهة .. شيء لا يحرق ...

* * *

كابوس ١٤٣

تمدد « السيد الموت » على سور المقبرة متعباً . كان ينتظر بفارغ الصبر انتهاء حفار
القبور من دفن كومة من الجثث في قبر جماعي كي يشكو له ويبثه همومه على عادة
المسنين .. سيقول له انه لم يمْ ليلة واحدة منذ اشهر من اقامته في بيروت . لقد ازدهرت
اعماله اكثر مما يستطيع فرد الاشراف عليها بنفسه .. خصوصاً اذا كان هذا الفرد مصاباً
بتصلب الشرايين والروماتيزم وارتفاع الضغط والسكري والتهاب المفاصل والذبحة القلبية
وضعف البصر وغيرها من أمراض المسنين التي يشكو منها « السيد الموت » . ودفن
فواتيره صار كبيراً وشاسعاً ، ولم يعد يقوى على حمله ، وصارت نظراته تنبه في عالم
ارقام الوفيات المتصاعدة بصورة لم يألفها في هذه الرقعة من الارض منذ مئات الاعوام ...
ويومها كان اصغر سنّاً على اية حال ... يتنهد « السيد الموت » ، بينما يقترب حفار
القبور ، ويتأهب لسرد ملحمة شكواه تماماً كبقية العجائز ..

لكن حفار القبور الشاب سبقه الى الشكوى ، وكان شاباً فقيراً ، لم يجد مهنة يدفع
بها اقساطه الجامعية غير حفر القبور : « لم يعد بوسعي الاستمرار في هذا العمل ... انه
يفوق طاقة الفرد على الاحتمال .. وحتى دفنهم في مقابر جماعية لم يخفف الكثير عني ...
انهم يأتون في قوافل ... انهم بحاجة الى مؤسسات للدفن ، لا الى افراد » ...

« مؤسسات » ... رنت الكلمة في أذن « السيد الموت » . ذكرته باشياء كثيرة ...
« مؤسسات » ... يذكر آخر مرة اضطر فيها للعمل ليل نهار ... يومئذ استدعته
« مجموعة مؤسسات » في واشنطن ، واشترت له بطاقة سفر الى بلد كان اسمه ... آه
لذاكرته اللعينة العجوز التي بدأت تخونه ... أكان اسم البلد فيتنام ؟ ام كوريا ؟ ام
كيبوديا ؟ ام فلسطين ... آه لم يعد يذكر لكنه صار يكرر الكلمة : مؤسسة ...
مؤسسة ...

وصرخ حفار القبور : اجل مؤسسة . انت بحاجة الى مؤسسة تدير لك اعمالك ...
لا الى حفار قبور مسكين مثلي .

* * *

استدعاه « السيد الموت » . فلباه الخبير ... وبدأ الحوار تقليدياً كأبي حوار بين شريك عمل ، التقيا لتأسيس شركة ضخمة رابحة ... فقد شكّا « السيد الموت » من امراضه ، وشكّا ضيفه من صعوبة المواصلات بين بيته في احد احياء واشنطن والمطار ، أما بقية الرحلة الى تل أبيب فقد كانت مريحة ... بين تل أبيب وقبرص لم تخل الرحلة من بعض المطبات الهوائية ، الا انه وصل في نهاية الامر الى بيروت وقد اخترقته بعض الرصاصات في الطريق بين المطار والمقبرة ، الا انه كأكثر الموتى – الاحياء ، لا يؤذيه الرصاص كثيراً ... ضوء الشمس وحده يضايقه ، واذا سلط عليه طويلاً تأكل جسده كمصاب بالجدام ...

وبعد الترحيبات التقليدية ، وكلها بالعربية التي اتقنها (الضيف) ايام دراسته لها في المدرسة الخاصة . (بهم) في قرية « شملان » بضاحية بيروت ، بدأ الحديث في العمل مباشرة ...

اراد « السيد الموت » ان يفصل قليلاً في شكواه حول حالته الصحية ، الا ان الضيف قطع « الحوار العاطفي » عند الحد اللازم ، وخاطبه بلهجة باردة كثلج فوق جرح مفتوح : ستكون لك مؤسسة مبتكرة . سيكون لك عشرات من معاونين . وهذا الكمبيوتر سينظم الفواتير عنك .. سأله « السيد الموت » وهو يسعل بشدة : مؤسسة لي ؟ مؤسسة للموت ؟ – طبعاً لن يكون اسمها هكذا . لنسمها « مؤسسة الخطف المتحدة » ... وسأسعى الى إدخالها في « الاتحاد العالمي للخاطفين » مما يرفع اسم لبنان عالياً في مجال جديد ... – ولكن ما علاقة الخطف بذلك ؟ ...

– ألا ترى ان الخطف قتل مع وقف التنفيذ ؟ وهكذا يتم تجميد الاحياء في حالة (خطف) ريثما يتسنى للمؤسسة تنظيم قوافلهم الى المقبرة ... ستكون مؤسستنا بمثابة براد للجثث ... كل ما في الامر هو انهم لن يكونوا جثثاً وانما جثث مع وقف التنفيذ تتحرك في الشوارع متوهمة انها تتابع اعمالها ، وهكذا لا حاجة للبرادات . نستطيع خزنهم في الاقبية وستكون لنا فروعنا حتى في البيوت ...

– ولكن من منهم يرضى بالتعامل معنا ؟
– كثيرون . سيكون على رأس العمل مدراء عامون متخصصون طبعاً ، وسأشرف على استدعائهم ، ولكن اكثر العاملين في المؤسسة سيكونون منهم ... من اهل بيروت .

— ولكن ، كيف تقنعهم بذلك . بالمال ؟
— ليس تماماً . قلائل هنا يمكن شراؤهم بالمال وحده . ولكن أكثرهم يمكن شراؤهم بعمليات كثيرة ، منها العشائرية والقبلية والدين (بمفهومهم الخاطيء له) ، اي الطائفية .. وعمليات اخرى كثيرة منها الغضب والحماقة والتزق والرغبة بالانتقام وغيرها من الاقنعة المزيفة على وجه المحبة ... التفاصيل فيما بعد ... المهم ان الكومبيوتر سيقوم بتنظيم هذه العمليات وبأقل قدر ممكن من الجهد ...

— واذا اختطفوك انت ؟

— لا تخف . انا ملقح ضد الخطف .

— وهل يوجد لقاح ضد الخطف ؟

— أجل ! واسمه الانتحار .. احد اضراسي محشوبحبة من السم الزعاف ، واستطيع الانتحار متى شئت ، وبعد ان يتخلص الخاطفون من جثتي انهض من جديد تحت اسم جديد لاتابع مهمتي ... انت تعرف ان من هم مثلي من الاموات — الاحياء لا يموتون تماماً لانهم لا يعيشون تماماً .. اجل .. الانتحار هو اللقاح الوحيد ضد الخطف ...

غضب « السيد الموت » من ذكر « الانتحار » وبدأت على وجهه امارات الضيق . فالانتحار مذكرة جلب بحقه ، واستحضار ارغامي له . حيث يقذف المتحر بروحه في وجهه دونما تهذيب او طقوس .. انه ما يزال يذكر يوم انتحر همنغواي .. ذلك الوقع .. بدلاً من ان يرتجف في حضرته ، استدعاه كما لو كان بوابة في عمارة (شقق الحياة المفروشة) .. تابع الخبير : استرح أنت قليلاً ، ودعنا نرتب الأمور ...

صبيحة اليوم التالي ، تمدد « السيد الموت » في فراشه ، وبدأ بقراءة صحف الصباح التي صارت مجرد نشرات تتحدث عن منجزاته .

فوجيء بالعنوان الرئيسي (المانشيت) :

أفاقت ييروت على ٧٠ قتيلاً و ٣٠٠ مخطوف . انه يعرف طبعاً حكاية السبعين قتيلاً ، وقد حرر بهم فاتورة موحدة ... اما الثلاثمئة مخطوف ، فتلك مفاجأة ! ... انهم « برسم الموت » وهذا يعني مزيداً من العمل ... آه من شريكه اللثيم . انه وصل البارحة فقط ، وكان يظن انه سيخفف عنه اعباءه ، واذا به يضاعفها ... ولكن ما جدوى الجدال ؟ سيقول له : « مؤسسة الخطف المتحدة » سنتظم لك اعمالك . التكنولوجيا الاميركية

والتخلف العربي في خدمتك معاً. الكمبيوتر المستورد والامراض المحلية سيتحالفان . لقد سمع منه محاضرة طويلة في هذا المجال ليلة البارحة وقد أرهقه النعاس وهو يتظاهر بالانصات ... ذلك الخبير اللعين ... جاء به ليساعده وليخفف من اعماله ، واذا به يضاعفها ... تنهد « السيد الموت » وهو يذكر عصور ما قبل التكنولوجيا .. كانت للموت هيئته انذاك ... كان يستقبل بطقوس ويودع بطقوس ... بل ان بعض القبائل البدائية كانت تحتفل بمقدمه في عرس مهيب ... لكن الحال ساءت منذ تلك الحرب العالمية ، واختراع المتفجرات ... لم يعد الناس يموتون فرداً فرداً وانما صار الموت صناعة جماعية وانتاجاً لاجـ مالياً ، وقد فقد « السيد الموت » من يومها لذة « الصناعي » وتحول الى موظف في مؤسسة - هندية ، يكسح فيها ليل نهار دونما لذة في العمل الرتيب الميكانيكي المتراكم . انه مثل رسام عبقرى ارغموه على العمل في مصنع لطبع الملصقات (والبوستر) ... آه كم هو حزين، وبائس ... لانه يشتهي لو يموت ويتخلص من هذه المهنة التي بلغت هذا الحد من الرخص والارهاق ... فمنذ اخترعوا تلك الماكينات الجهنمية التي يحشونها بالناس ويطيرون بها الى اعالي السماء او الى قاع البحر زادت مهماته وصار عليه بالاضافة الى الركض ان يتعلم الطيران والسباحة والغوص أيضاً ... آه كم يكره الطائرات والغواصات ومركبات الفضاء أيضاً ... فالخروج من الجاذبية الارضية يسبب له صداعاً يكاد يصير مزماً .. آه كم هو حزين وبائس ولا احسد ينصت لشكواه ... انه يحسد الافي ، فهي تغرس نابها السام في ذاتها احياناً وتتحرر .. اما هو فعاجز عن اسباغ بركته على ذاته ... انه يمنح السلام النهائي للجميع الا لذاته ... ان لعنة « السيد الموت » اسمها الحياة . انه عاجز عن الموت ، ومع ذلك فان اولئك البشر الاغبياء يتضايقون غالباً من حضوره دون ان يلحظوا اية مأساة هي ان لا يحضر . وان يكونوا مثله ... وان يعيشوا أبداً دونما امل بالموت ! ..

* *

جلس « السيد الموت » وشريكه الخبير يطالعان الصحف في مقر « مؤسسة الخطف المتحدة » التي اتخذت لها مقراً في أحد فنادق بيروت السياحية الفخمة . لقد ازدهرت اعمالها بصورة لم يكن يتوقعها حتى الخبير نفسه ... وكثر العاملون فيها ، ولم يعد الكمبيوتر كافياً لتصريف الأعمال المزدهرة ، وهم ينتظرون وصول كمبيوتر جديد لفتح فرع آخر لمؤسسة الخطف ... كان صوت المذياع عالياً، والمذيع يتابع نقل

رسائل الناس الى اهلهم للتطمين ويقول : السيد منير شاكر من بيروت يطمئن الأهل في قرية السماقية انه بخير ، ويطلب منهم تطمينه . نحن بخير طمنونا عنكم ! ... وانفجر الخير ضاحكاً وقال للموت : هذا برنامج اذاعي جديد .. لقد اسسنا برنامجاً مماثلاً في فلسطين وهو ما يزال يذاع بنجاح منذ ٢٨ سنة ، كما ان اقطاراً كثيرة مجاورة بدأت بتقليده وهذا أمر يسرنا ... وها هو أخيراً يصل الى لبنان ... ألم أقل لك ان اعمال شركاتي الاخرى مزدهرة ؟ ..

تابع المذيع القراءة : نديم الانس من بغداد يرجو من ولده المقيم في « عملة القمر » بمحلة الروشة تطمينه عنه . يضغط الخير زراً ويقول في شريط يسجل اقواله وينقلها الى غرفة اخرى للتنفيذ : اذهبوا الى العنوان المذكور وهاتوا ابن نديم الانس .. سنحتاج اليه . ضحك الموت قليلاً وهو يقرأ التصحيح التالي : يعلن كتورة كتورة انه لم يقتل كما ورد في خبر البارحة .

يضغط الخير الزر : صححوا الخبر على طريقتنا . اقتلوه ! ... يقرأ الموت : نعي اليكم وفاة المرحوم عياش عياش ... ويبحث قليلاً في فواتيره ثم يقول : هذا اللعين عياش عياش ينشر خبراً عن وفاته إلقاء للقتل ، ولكنه ما زال حياً . اسمه ليس في فواتيري . اولئك البشر ظرفاء ، ولا تنتهي اساليبهم الهروبية . يضغط الخير الزر : هاتوا عياش عياش فوراً . سنوفر عليه ثمن اعلان آخر ! ...

يصر الموت : تستطيع اختطافه لكنني لن احرر به فاتورة ... اولئك البشر الظرفاء احبهم .. انهم مضحكون ولكنهم ظرفاء ... يتكرون اساليب كثيرة للهرب مني ... ولكن ...

كل هذا كان يحدث والكمبيوتر يعمل سريعاً على فرز جداول دائرة النفوس التي حشوه بها ، بالاضافة الى الصحف التي صارت بمثابة سجلات للموتى بحيث يقوم بعمله بتجميع المعلومات وترتيبها واستثناء الذين قتلوا .. واعداد قوائم للذين هم برسم القتل .. فجأة يتوقف الكمبيوتر ويبدأ يبصق بعض المعلومات غاضباً يتناولها « السيد الموت » ويقرأ : الطفلة جوانا (١٢ سنة) تتوسل الى خاطفي والدها الرحمة بها وبه واعادته . يقرأ القصاصة الثانية : اب ضرير يتوسل الى خاطفي ولده (...) ان يرأفوا به

ويعيلوه .

يعلق الخبير : الكمبيوتر لا يفهم هذا النوع من الاخبار ولذا فانه يبصقها .
وأضاء الكمبيوتر نوراً أحمر . هرع اليه الخبير . وجده متوقفاً عند خبر يقول :
أب ثري مستعد لدفع مئة الف ليرة لاعادة ولده المخطوف . وبدأ الكمبيوتر يطبع
اقتراحه التالي : ١ - يعاد المخطوف بعد قبض المبلغ ثم يقتل في اليوم التالي برصاصة
طائشة .

٢- يحمل كل شخص تسعيرته على صدره بالمبلغ القادر على دفعه فدية في حالة الخطف.
نخطف الاثرياء فقط .

صرخ الخبير بالكمبيوتر : ايها الغبي . لسنا هنا لقتل الاثرياء ، بل الفقراء فقط .
هناك معلومات اضافية معقدة لا بد من حشوك بها لتتم مهمتك على أكمل وجه .
دخلت سكرتيرة :

هنالك رجال يرغبون بمقابلتك .

— غازلهم فانا الآن مشغول .

— حاولت وفشلت . انهم غاضبون ومضرون على رؤيتك .

اسألهم : ماذا يريدون . وشغلي الحارس الالكتروني لحمايتي .

يلتفت اليه الموت قائلاً : اولئك البشر يدهشوني باستمرار . انهم يزايدون عليك .
لقد ابتكروا ايضاً « الخطف الوقائي » حيث يخطفون سلفاً بعض ابناء العشيرة الاخرى
لقتلهم في حال قتل اولادهم ... فكرة « الخطف الاحتياطي » هذه لم تخطر حتى يبال
كمبيوترك الغبي ..

رد الخبير ببرود : بشرك الطرفاء هم حلفاء لي دون ان يلحظوا ذلك ، واختراعاتهم.
من « خطف وقائي » و « خطف احتياطي » ليست اكثر من خدمات مجانية لمؤسستي
يقول الموت مدافعاً : لكنهم يعاملون مخطوفهم معاملة كلها كرم وحسن وفادة ...
ويتنافسون في اكرام مخطوفهم ...

أجاب الخبير : لكنهم بالمقابل يعاملون مخطوفهم احياناً بمتهى الوحشية ويتنافسون
في ابتكار الوسائل لتعذيبهم ...

يهر الموت رأسه بأسى . ويهمس : اولئك البشر يحبروني . انهم مزيج غريب

عجيب .. لكنني احبهم على اية حال ...
تدخل السكرتيرة وتقول : يقولون انهم يمثلون اتحاد الخاطفين ، وان مؤسستنا تضارب
عليهم ضاربة غير مشروعة ، وسوف يشكوننا الى محكمة العدل الكونية طالين طردنا
من اتحاد الخاطفين ، لاننا لا نحمل رخصة بالخطف موقعة من نقابتهم ... وانهم يريدون
منا دفع (خوة) ، وفي هذه الحال فقط يمكنهم (غض النظر) عن أعمالنا ..
قال الخبير لسكرتيرته : هذا عظيم . ادفعي لهم ضعف الخوة كراتب شهري ونظمي
اوراق عملهم كموظفين في مؤسستنا . نحن بحاجة الى اشخاص اكفاء ولهم خبرة بهذه
الاعمال .

لم يكن الموت ينصت وانما كان يقرأ خبراً بصقه الكمبيوتر يقول : يشكر وديع
الوديع خاطفيه على معاملتهم الحسنة اثناء فترة اختطافه . ويذكر تلك الايام الجميلة التي
مضت سريعاً وعاش خلالها في ربوعهم ... كل شيء يمضي لكن ذكراهم لن تمضي ...
وضحك الموت طويلاً وكرر : اولئك البشر الظرفاء المساكين ...

يقول الخبير : ظرفاء ؟ ليس دائماً ... لكنهم ما زالوا يشعرون بعقدة النقص امام
الاجني ... هل سمعت بالاجانب التسعة الذين رتب الكمبيوتر أمر خطفهم ؟ لقد
عاملوهم كترابث في فندق من الدرجة الممتازة وكان الخاطفون يبيتون جانعين من اجل
اطعام (ضيوفهم) الاجانب ...

رد الموت مدافعاً : انه الكرم العربي .

قال الخبير : بل عقدة النقص امام الاجني ..

ونهض واحضر نصاً طبعه الكمبيوتر ثم قال للموت : انظر الى بشرك الحمقى . لقد
اعادوا « ابن البيك » بعد انقضاء نصف ساعة فقط على اختطافه ! ...
— من اعاده ؟

— ابناء (البيك) المعادي لأبيه ... الم اقل لك ان اكثر زعماء هذا البلد مصالحهم
واحدة مهما تباينت شعاراتهم ، وارتباطاتهم واحدة . وكلهم في خدمتنا بطريقة او
باخرى ... تلك هي مأساتهم الحقيقية . وفي ذلك الدعامة الاساسية لمؤسساتنا كلها ...
— ماذا عن خادم البيك الذي اختطف مع ابن البيك .

— سيقتل طبعاً ... الفقراء لا يصلحون في مؤسستنا لغير القتل . اسأل الكمبيوتر .

قال الموت متضايقاً : بصراحة ... انا لم اعتد على التمييز بين الاغنياء والفقراء منذ بدأت مهنتي ... ولا احب كومبيوترك هذا ... اعتقد انني سأفك شراكتنا ...
رد الخبير : كف عن اضاعه وقتك ووقتي . هنالك فاتورة يقول الكومبيوتر بضرورة تحصيلها .

لم يكن الموت نزعاً . على عادة المسنين ، قرر ان يتفادى الشجار مع شريكه ، فذهب ليحصل الفاتورة باسم جميل جميل ، وفوجيء حين اكتشف انه كان قد حصلها منذ زمن بعيد ... ولكن امه كانت ما تزال في ثياب الحداد حين ابلغته ان ولدها مات منذ زمن بعيد .. كانت هذه اول مرة يذهب فيها لقبض روح شخص مرتين . ولم يحدث له من قبل ان شعر بمثل هذا الحجل ...

هذا الكومبيوتر اللعين . سيتخلص منه فوراً . هكذا قال للخبير حين عاد رد الخبير ببرود : وماذا في ذلك ؟ الكومبيوتر ليس منزهاً عن الخطأ . انه كالبشر الذين تحبهم ... ثم لماذا لا ترى الا الجانب السيء من اعمالنا ؟

انظر كم ازدهرت اعمالك بفضلنا ... لقد اصبح أهالي هذا البلد موزعين في لختين : لجنة تبادل المخطوفين . ولجنة تبادل الجثث . ماذا تريد اكثر من ذلك ؟ .. صار المشي أخطر رياضة تمكن ممارستها في بيروت . وصار المشاة من رعاياك بعد ان كنت تتحكم في رياضي الملاكمة وسباق السيارات والدراجات فقط ... والشوارع صار اسمها جبهات . والساحات صارت مقابر . والجسور صارت جسوراً للابدية تتكدس الجثث المجهولة الهوية فوقها كل صباح ... لم تعد الحقول تنبت غير الجثث ... انني ابني لك امبراطورية هنا . وانت تتلذذ ؟ ...

دخلت السكرتيرة تحمل اوراقاً مطبوعة كبطاقات الزيارة . سأل الموت : وما هذا ؟
رد الخبير : هذه بطاقات تحمل اسم المؤسسة ورقم هاتفها لتعميمها على اسر المخطوفين كي يتصلوا بنا ويطمئنوا الى مصير ابنائهم ... من حقهم ان يعرفوا بالمقتولين فور حدوث ذلك ... الا ترى معي اننا مؤسسة حضارية ؟....

* * *

كابوس ١٤٤

بينما كانت النيران تلتهم السجن لم يشعر شادي بالخوف . شعر بالنشوة وادهشه ذلك .
شعر بنشوة مروعة تقارب النشوة الجسدية لحظة الذروة حين مر به رجل شبت به النيران .
شعر بالشيء ذاته وهو يرى بعض زملائه السجناء يقتلون ويسقطون تحت اقدام بقية قافلة
الهاريين .. بل انه كاد يتوقف عن الركض ليرقبهم يموتون ويستريد من لذة مشاهدة
احتضارهم ..

لا يدري ماذا دهاه ..

منذ سجن ظلماً وعذواناً هكذا ، أحس بالحقد والقرص من كل شيء ... واستولت
عليه رغبة بتدمير كل شيء ... وقد اتفق مع (زلة) البيك الذي لازمه طوال فترة سجنه على
العمل معهم ... وبلغه (زلة البيك) ان سيده يحب انضمام (المثقفين) الى رجاله ...
لا يدري ماذا دهاه ...

كل ما يلمسه يشتعل .. كل ما يرميه يتحول الى قنبلة يدوية ... انه « ميداس اللبناي »
والعشب يموت في موطيء قدميه ، والنساء يستحلن كوماً من الرماد بعد ان يغتصبهن ،
والاطفال يكفون عن الغناء بعد ان يمر بهم ، وحتى قطط الشوارع وكلابها تتحاشى
الاقتراب منه كما لو كان شبحاً ملعوناً ...

قرر انه ربما كان واهماً . ربما كان وجود امرأة في حياته سبباً لتهدة هذا الجنون
المكهرب المحيط به ومناخات العنف التي يحرضها كيفما تحرك ..
تذكر أخته ... قرر ان يكتب لها رسالة ويرمي بها اليها في غرفة نومها ببيتها مقابل
فندق « الهوليداي إن » ...

كان يعرف انها غبية جداً حين تحب ، وانها عاطفية جداً وبالتالي غبية اكثر أيامها ...
وكان يحب فيها ذلك ... بالضبط : يحتاجه ..

كتب الرسالة . كورها جيداً . قذف بها الى غرفة نومها ليلاً ...
اذله انها انفجرت كقنبلة يدوية .. وتطايرت اشلاء اخته عبر النوافذ في فضاء
الليل .

تأمل يديه بذعر ... كل ما يلمسه يصير دماراً ... انه ميداس اللبناي البائس !! ...

* * *

كابوس ١٤٥.

استيقظت دفعة واحدة من كوابيسي المروعة ... الدوي لم يكن مروعاً بقدر ما يتوقعه المرء حين ينفجر غرفته صاروخ ... ويخيل الي ان حاسة سريّة (لنسمها الحس بالخطر مثلاً) هي التي ايقظتني ، وليس دخول الصاروخ ...

احدى النوافذ قد ثقت . أو ثقب خشبها العتيق المغلق الواقع بين السرير الذي أنام فيه . والاربيكة التي تكوم عليها امين ... في البدء كانت هنالك سحب من الغبار ثم تكشف المشهد عن ... صاروخ ! ...

اخترقها الصاروخ لكنه لم ينفجر بل تكوم بسلام فوق مقعد مخملي .. في البدء سمعنا صوت تكسر الخشب وتناثره . لم أصرخ . لم يصرخ أمين . نهضنا نحدق مذهولين في الموت القادم الينا داخل كبسولة ... كان طوله يقارب المتر . ولونه يميل الى الخضرة الداكنة . أية سخرية أن يرتدي الموت لون الأشجار وخضرة الحياة .

وهربنا من الغرفة في ركض مسعور الى أقصى ركن في آخر البيت .. لم يكن بوسعنا الهرب من البيت فقد كان رصاص القناصين يتولى سجننا المطلق داخل بيتنا الذي تحول الى كهف للموت ... وانتظرنا أن يدوي الانفجار .. لكن ذلك لم يحدث .. انتظرنا طويلاً . وصرخ أمين منادياً خادمه . فلم يرد . وانتظرنا .. لم أشعر بالخوف تماماً ... في مثل هذه اللحظات يستولي على الجسد شعور حار بالترنّب والتحفز لا بالخوف ... ومرت الدقائق بطيئة ... ولم ينفجر الصاروخ وحينما نظرت الى ساعتي . وجدت أنها صارت بلا عقارب تماماً وقد مسحت عنها الأرقام . لم أعد أعرف اسم اليوم . الساعة . الشهر . الهاتف مشلول . وبطاريات المذياع تخضر . وجسوزي كلها مع العالم الخارجي تنهاوى جسراً بعد الآخر ..

وها أنا جائعة ومتعبة ومرمية خارج الزمان والمكان . وعلى بعد أمتار مني صاروخ لم ينفجر بعد . وفي برميل بالحديقة جثة . ولي أخ بالسجن . ولي أب في القبر ! ولي ذكريات ممضّة مع انسان كان أقرب الي من ضربات قلبي . ولي أصدقاء وصديقات ربما كان بعضهم يقتل في هذه اللحظة بالذات أو يعذب دون أن أدري بعد ...

تناولت سيجارة . وحين أشعلت عود الثقاب انفجر وطار مشتغلاً فوق ثيابي ... بدا لي الأمر مزعجاً ومضخماً كنبوءة بالحريق ... وحين سقط غطاء علبة البسكويت

من يد أمين على البلاط ، قفزنا من أماكننا في هلع ، فقد بدا دويه عالياً كأنفجار قنبلة ...

نظرت من جديد الى الساعة ... لم أجد فيها أية عقارب فعلاً . ولا حتى أرقاماً . كانت مجرد دائرة صغيرة بيضاء مقفلة وفي وسطها نقطة سوداء ... وشعرت أنني مثل تلك النقطة السوداء سجين الزمن الخاوي الغامض ، ودائرة ما تسجني ... ثم نطق أمين وقال : انه لم ينفجر ...

قلت لنفسي : ما دام لم ينفجر ... فهذا معناه انه لن ينفجر ولكنني لم أكن واثقة من ذلك تماماً . وشعرت بالندم لأنني لم أطالع فيما مضى أية كتب عسكرية ، أو كراسات مفصلة حول المتفجرات العصرية .. لو كنت فعلت ، لما جلست مثل هاملت على قمة صاروخ وأنا أردد أشعار شكسبير . على طريقي : « أن ينفجر الصاروخ أو لا ينفجر ... تلك هي المسألة » ! ..

ورغم كل شيء ، لم أكن بائسة بقدر ما يجب أن يكون انسان جائع ووحيد ومذعور ومهدد بالموت عطشاً وجوعاً وحرقاً وهو مجروح اليد والأذن مثلي ... بل ان الوضع بدا لي هزلياً بطريقة ما ! ... وفي أعماقي سكينه نسبية تقارب الانتعاش كأن هنالك دورة نفسية داخلية تتجاوز الأحداث ... كأن سقوطي البارحة الى قاع الحزن والجنون ، كانت ردة الفعل الطبيعية له هي طوفاني اليوم فوق سطحه ، وربما طيراني لثوان معدودات عن أرض الحزن ... كأن في أعماقي طاقة سرية مختزنة ، وحينما أبدأ بالانهيار حقاً ، يعمل ذلك المحرك الغامض ... وينقذني ولو قليلاً ...

قلت لأمين : سأفقد بيتنا وأعود .

قال في محاولة لاستبقائي : والصاروخ ؟

— هل تتوقع مني أن أنتزعه لك من المقعد ثم أذهب لأقذف به الى البحر ؟
— وهل تتوقعين مني أن أستمتع بمزاحك الآن ؟ ... لا حوار بيننا . مجرد ثرثرة .
لم يكن بيننا أي تفاهم قط . كنت دوماً أنظر اليه كما لو كان فتاة شرقية عاطلة عن التفكير . وكان ينظر اليّ كما لو كنت شاباً غربياً متفلتاً من التقاليد المبهجة ... ولكن ، ها هو عند أول احتكاك له بأخطار الحياة ، يقذف بجثة أبيه الى برميل القمامة . شعرت برغبة في ايلامه ، كأن أقول مثلاً : « حسناً سأفقد أنا الصاروخ في المقعد ، وتفقد

أنت جثة والدك في برميل القمامة ... لكنني لم أفعل لأسباب أنانية جداً . لو طردني من بيته لكان في ذلك موتي المحتوم . فبقي في الطابق العلوي معرض للخطر أكثر من بيته ، هذا أولاً . ثم ان هاتفي معطل تماماً . وهاتفه ما يزال يعمل بين وقت وآخر وفقاً لاتجاه الريح والمطر أو لأسباب سرية أخرى . الطعام بأكمله موجود في (كهفه) . الشموع القليلة الباقية أيضاً . اذن ، لا مفر من الصلح ! ...

وصعدت الى بيتي صامتة ... تذكرت كوابيسي عن أخي وتمنيت أن أسمع خبراً واحداً عنه مطمئناً أو غير مطمئن - المهم أن أعرف شيئاً عن مصيره بدلاً من (اختراع) مصائر عدة له في كوابيسي .

الرصاص قد اخترق أكثر النوافذ ... وفي الأرض أكوام من الحديد المصهور المختلفة الأشكال ... عشرات من بقايا القذائف المنطقة ... حملت حفنة منها في يدي ، أتأملها مذهولة ... كان يمكن لأية قطعة منها أن تستقر في عضو ما داخل جسدي حارة كاوية ... لكنها الآن في قبضة يدي ، باردة ، وشبه صلبة ... وشعرت بما يشبه النشوة . انني أختطف الحياة اختطافاً كل ثانية . اني أختطفها من كل هذا الموت المحيق بي . اني أقتنصها كل صباح مثل صياد أعزل في غابة مخوفة بالمخاطر ... تفقدت مكتبي . تحسستها بجنون ، ووعيت أنها وحدها مصدر قلقي ... وان الفقر نعمة هائلة في زمن الحرب الأهلية ، اذ انني لا أملك شيئاً أخشى خسارته ، غير هذه الكتب . طمأنت نفسي الى أن لا أحد يسرق الكتب . النار وحدها عدوة الكتب ... كانت لدي (طفايتان) صغيرتان للحريق ... ولكنني ، بعد تجربتي مع (الرصاص - البلياردو) الحديث ، لم أعد أدري ماذا يمكن أن تصنعه هذه الأنبوبة الحمراء الصغيرة ... عاودت قراءة الارشادات المكتوبة على اسطواناتها ... من المفروض أن أكسر البلاستيك الذي يسور أعلاها ، وأضغط على الزر فيتدفق شيء سحري يطفىء النار ... ترى ما هو ؟ هل هو فقاعات كمرغوة الصابون ؟ أم سحابة زرقاء ؟ أم دمعة صدق واحدة ؟ درت في البيت . كانت رائحة كريهة تنبعث من المطبخ . رائحة الأواني والطناجر التي لم تغسل وبقايا الأكل فيها ... والبراد الذي لم أكد أفتحه ، حتى هب سرب من البعوض الصغير وسحابة من الروائح الكريهة ... حينما اشتد القصف لم أستطع البقاء في (مقري الحربي) بالمشي ، فقد كانت الرائحة المنبعثة من المطبخ لا تطاق ..

حملت حقيبتى البرتقالية اللون الصغيرة وعليها الحروف الثلاثة الأولى لاحدى شركات الطيران وعدت الى الطابق الأول .. لم أقرب من النافذة .. لم أطل على الطريق لأرى مصير سيارتي العتيقة ... شعرت بنوع من اللامبالاة بكل شيء . الخيوط كلها تقطعت ، الجسور كلها انهارت . وثمة برعم أخضر ينمو رغم كل شيء ، وبالأحرى بسبب « كل شيء » ... حتى أخي ، أفكر به هذه اللحظة بفتور يشبه اللامبالاة ... وحدها مكتبتى أشعر بقلق حقيقي على مصيرها ... وحدها محتويات حقيبتى الصغيرة البرتقالية تهمني ، وفيها أوراق كواييسي التي سجلتها تحت الرصاص لحظة بلحظة .. الكتابة ... ذلك الجنون داخل الأصابع وداخل الخلايا وداخل الأعصاب ... ذلك الوباء غير الساري الذي استسلمت له منذ طفولتي . واستعصت به عن البكاء والأم والحنان والأصدقاء ... وحتى عن الحب أحياناً ! ... وكانت الحقيبة البرتقالية الصغيرة تضم مظروفاً أصفر كتبت عليه بخط كبير « مخطوطة كواييس بيروت » وتحت مذكراتي وبعض أوراقى وأوراق يوسف وصوره وأشياؤه وعود ثقابه وتذكاراته ... كان ذلك كل ما سأحمله معي من هذا الجحيم ... اذا قدر لي الخروج حية ... ومنذ ضمت الحقيبة البرتقالية كترتي وأنا ممسكة بها لا أفارقها .

خيل الي انني أسمع صراخ أمين .. يأتيني رغم عاصفة البارود . عاصفة السماء هدأت قليلاً ، وها هو خيط نحيل من الشمس يدخل إليّ عبر الزجاج الملون للقمريات .. آه الشمس . آه الفرح ... الغابات . البحر . القمر . الأزهار البرية . ندى الحقول . الأشجار . العشب . آه يوسف ... يوسف ... يوسف ... ابتلعت البئر ولم يعد .. وأخذها كلها معه ؟

* * *

كابوس ١٤٦

لم أكن مخطئة . كان أمين يناديني . وجدته واقفاً عند منتصف الدرج وكانت هذه أول مرة يخطو فيها خارج عتبة بيته . لا ريب في أن كارثة ما قد حدثت . — ماذا حدث ؟

لا يجيب فقط يستمر في منادائي . يركض . أركض معه ... ندخل بيته وهو يركض أمامي نحو نافذة تطل على الحديقة الخلفية ..

من شق صغير بالنافذة ، نرى بوضوح : الخادم مما دأ ووجهه نحو الأرض كما لو أنه كان يرضع من ثديها ... ولولا بركة الدم التي لوبت بعض الحصى حوله ، وضاعت في التربة البنية لظننته نائماً ...

قال أمين : لعله سرق شيئاً وحاول الهرب .. لم أجب ، تعلقت نظراتي بشيء كانت الجثة تقبض عليه باصرار ... شيء أصفر .. انها موزة .. وعرفت لماذا قتل ذلك الانسان النبيل ... ولم أقل شيئاً ! ... لم أقل لأمين ان خادمه قد قتل من أجل اطعام كائن حي هو : القردة . تلك عواطف لن يفهمها ولا يقوى على منحها سوى الفقراء البسطاء .

* * *

كابوس ١٤٧

انه الجحيم ..
أن تعيش مع انسان لا يربطك به شيء أكثر مما يربطك بأية جرادة في الحقل .
انه الجحيم ..
أن تكونا مثل نزيلين في فندق أجبرا على الاشتراك في غرفة واحدة ... أن تتحدثا دون حوار ... أن يبت كل منكما على موجة مختلفة تماماً ...
انه الجحيم ..
وأنا وأمين مرغمان على البقاء معاً في غرفة واحدة بأقصى البيت خوفاً من انفجار الصاروخ الجالس على المقعد بالجهة الأخرى من البيت !
في البداية ، كان بوسعي البقاء وحيدة أطول وقت ممكن . الآن ، في الحديقة جثة ، وفي برميل القمامة جثة ، ولكنها جثت صامتة ، ومعني في الغرفة جثة أمين ، لكنه يثرثر ...
لقد قرر أخيراً إنفاق بعض كنوز الأسرة ، وفتح زجاجة نبيذ معتقة ، ومعها انفتح صدره المتخمد بالتفاهات ...

انه مصر على أن يقرأ لي في دفتر النكات العتيق ... وأنا أحاول أن أركز على الكتاب الذي أنزلته معي واسمه « العقلية العربية » تأليف جون لافين ومنذ السطور الأولى أجده يتهمج على العرب .. أقلب صفحاته فأجده مجرد ملحمة لشتمننا ... يا الهي ، كلهم

ضدنا ، ونحن نحالفهم ضد أنفسنا ! .. أي رعب ..

انه الجحيم ...

وأمين ما يزال يقرأ في الكتاب العتيق للنكات ويضحك في هستيريا مخيفة ، وأنا أفكر باصرار : يجب أن أهرب . يجب أن أنجو . واستند الى الحقيبة البرتقالية بيدي وفيها كل ما يعني من هذا العالم الوحش . ترى هل هي صدفة أن لون الحقيبة برتقالي ؟ حين كنت صغيرة ، كنت أرسم الشمس دائرة تخرج منها شعاعات عدة ، وأصر على تلوينها بالبرتقالي رغم ارشادات معلمة الرسم على أن ألونها بالأصفر ... ومرة حدثت في الشمس لأرى فيما اذا كان لونها برتقالياً أم أصفر فشعرت بألم شديد وبدأت لي الشمس سوداء ... وأينما نقلت نظراتي كانت تلاحقني الشمس السوداء ... ولكنني ظلت أصر على أن الشمس برتقالية . أمين مصر على أن يكرر لي احدى النكات لأنني لم أضحك لها ! ...

انه الجحيم ...

وأنا أتشاغل عنه بقراءة صحف ما قبل انقطاعنا النهائي عن العالم ... صور كثيرة لجثث القتلى بعد التعذيب وبدون تعذيب ... أتأملها ... ألحظ أن ملامح الأموات دوماً مسرخية ، كأنها استيقظت تواء من سبات طويل ! ... أمين ينتزع من يدي الصحف . انه ما زال مصرأ على ملاطفتي بقراءة النكات لي ... أحاول مجاملته . أحاول أن أبتسم . وأفكر ، وأخطط لهربي ... أجل ! الهاتف هو الوسيلة الوحيدة ... انه ليس مقطوعاً ولكن ، لا حرارة فيه ... على الأقل خلال نصف الساعة الذي قضيته ممسكة بالسماعة لم تسرف فيه أية (حرارة) ... اذن سأمسك بالسماعة طوال ساعة ، بل طوال النهار ... ما دام وسيلتي الأخيرة لاطلاق صرخة الاستغاثة ...

انه الجحيم ...

أشعر بالجوع والوحشة ، وأتذكر مئات المجهولين في مختلف المدن العربية الذين طالما تعاطفوا مع حروفي ومشوا الى قلبي على جسور كلماتي تذكرت رسائل القارئات اللواتي وجدن في عذاب مرآة لقلوبهن الممزقة ... آه لو كتب الجميع لي رسائلهم على الخبز ... اذن لما عرفت الجوع أبداً ...

لكنني جائعة ...

وأمين ما يزال يشرب نبيذه ويطلق نكاته ... والهاتف ملاصق للغرفة التي يجلس

فيها الصاروخ غير المنفجر ... وأنا حائرة بين المغامرة بالذهاب الى هناك .. أو البقاء هنا والموت ضجراً من أمين ... أجل ... هذا الرجل سيقتلني بالسلاح الوحيد الذي لا ذكر له في نصوص قوانين العقوبات : السماجة ...

انه الجحيم ...

نظراتي تيم في كل مكان وتتطلع الى أي شيء ، متحاشية أن تتعثر بوجهه ... عبر الباب المفتوح أستطيع أن أرى المقعد الذي مات فيه العم فؤاد ، والكنوز ما تزال تحيط به ... على المقعد ذاته سيموت أمين والكنوز تحيط به ... أنهم على استعداد للموت من أجل أوثانهم ، والمال هو معبودهم الجديد ، المال بكافة صورته من آنية فضية وصينية وذهبية ..

آه الشمس . الفرح . الحرية . البحر . الغابات . القمر . النجوم . آه يوسف . ما الذي يدفع بالناس الى التكالب على جمع الأوثان وحتى الموت في سبيلها ؟ .. سمعت صوت يوسف : « انه الخواء من الحب » . أجل الخواء من الحب . وها هو أمين يجلس أمامي مثل خاية مثقوبة لا تضم غير الفراغ ... والشعور المفرط بالخواء ... آه يا يوسف ...

ذلك هو ما يدفع بالناس الى التكالب على السلطة والمال ، وبالتالي الشر ، أي الحرب .

العشاق لا يطمعون بانتزاع اللقمة من فم سواهم كي يصابوا بالتخمة ، فالعشاق لا يجوعون بأكثر من طاقة الأرض على اطعامهم ... آه يوسف . العشاق يملكون ذاتهم ، وهم بالتالي لا يشعرون بالحاجة الى اثبات الذات عن طريق جعل المادة معادلاً موضوعياً لها .

الذين يستعوضون عن (الحب) بـ (حب التملك) هم الذين يصنعون الحروب ... ثم يموتون رعباً بين كنوزهم ، ويصيبون نسلهم بلعنة « ميداس » ... انه الجحيم ...

والقصف لم يهدأ كي أذهب الى الهاتف وأحاول ... والبيت بأكمله يرقص كما لو كان الزلزال راكضاً به في دروب قرية الانهيار ... قررت : سأنتظر حتى يهدأ القصف ، وبدلك تنقص ، احتمالات انفجار الصاروخ

في الغرفة المجاورة لموضع الهاتف ..
لكن القصف لم يهدأ ... وفكرت بالملثات الذين يموتون ... وقال أمين : لكل
شدة نهاية ... غداً يعود كل شيء كما كان وترمين البيت ...
الأحمق ! هل يصدق حقاً أن أي شيء يمكن أن يعود كما كان ؟ أولئك الذين
يموتون ، هل يظنهم مجرد أحجار شطرنج يستورد التجار بدلاً عنها ؟ ...
ووجدتني أنهض راكضة الى الهاتف . رفعت السماعة وفوجئت في اللحظة ذاتها
بأن هنالك من يطلبني . صوت أليف . انها الصديقة آمال ... ومثل سفينة تغرق ، وتطلق
صرخات استغايتها في الاتجاهات كلها ، قلت لآمال بسرعة خوفاً من موت الهاتف أو
موتي أنا : اسمعي . يجب اخراجي من هذا البيت بأية صورة . اتصلي بالجميع . جميع
الذين سيكتبون المطولات في رثائي اذا مت وبترحمون على موهبتي وشبابي ، قولي لهم
اني لا أريد رثاء ، وملعون كل من يكتب كلمة رثاء أو قصيدة تأبين . قولي لهم أريد
أن أحيأ ... اذهبي الى الجميع ... مهما كانت المغامرة سأخرج ، لأن البقاء هنا أصبح
مرادفاً للموت .. أريد مصفحة وسأركض اليها ولو تحت مطر الرصاص .. وانقطع
الاتصال الهاتفى ... لكنني كنت أعرف أنها لن تفعل شيئاً آخر ...
انه الجحيم ...

فقد قلت لأمين : هنالك احتمال في قدوم ملالة لانقاذي . هل تريد الخروج
معي .

رد بذهول : وكيف أخرج ؟ وماذا عن البيت ؟ سينهبه السارقون .
انه الجحيم فعلاً ! ... حيث تعبد الجدران والأوثان . قلت ذلك لأمين . وفاجأني
جوابه : ولكنك مثلنا . كل ما في الأمر أنك تعبدن وثناً مختلفاً لكنه وثن . هذه الحقيقة
البرتقالية وأوراقك وكتاباتك فيها ... خوفك المستمر على مكتبتك من الحريق ، هو
تماماً كخوفنا على ذهبنا وفضتنا من الحريق ... اذا كنت وثنية فأنت أيضاً مثلي وان كان
ما نعبد مختلفاً ...

لم أجب . من حيث المبدأ بدا لي ما يقوله صحيحاً الى حد ما ... ولكن ، اذا فرضنا
جدلاً أنه على حق ، أليس هنالك أي فرق - ولو « كمي » ان لم يكن نوعياً - بين من
يعبد الذهب ومن يعبد الكتاب ؟ ..

صرخ صوت من داخلي : لا . لا فرق . كلاهما عبادة . والكتاب وسيلة لا اكتشاف
معرفة جديدة ، لا للتمسك بما عرفته للتو . الكتاب لحظة لاحقة ، وكل كتاب انتهي
من قراءته يجب أن يقضي نحبه ، وأنخلي عنه بانتظار الكتاب الذي سيصدر ...
ولكن ... مكتبي .. انها ليست مجرد كتب بالنسبة لي ... انها حوار .. كل
كتاب انسان تحاورت معه ... فعلى هوامش كتي كلها دونت ذلك الحوار .. وعلى
هوامش كتي كلها سجلت صرخات الاستحسان أو الغضب أو التساؤل أو النقاش ...
الكتاب الذي أقرأه ، أقرأه كما لو أنني أعيد كتابته ، أو أشارك كاتبه في حيرته وبحته
وتساؤلاته ... كتي ليست مجرد كتب تزيينية .. بل هي محاضر جلسات بيني وبين
المؤلف ...

انه الجحيم ...
فأنا لا أستطيع أن أقول ذلك كله لأمين لأنه لن يفهم ... صواني الفضة والذهب
الموجودة لديه ، يمكن اعادة شرائها من أي مخزن (كريستوفل) في العالم ، وكل ما
يحتاجه الأمر هو توقيع على (شيك) ، أما مكتبي فلا يمكن شراؤها كما هي من أي
مكان في العالم ، فأنا أستطيع شراء الكتب نفسها ، لا جلسات الالفة مع السطور
والهوامش على جوانبها ... الهوامش التي تسجل تفاعلي مع الكتاب ، لا الكتاب وحده ..
والتفاعل الانساني لا يمكن شراؤه ...

ولكن ، حتى لو قلت ذلك لأمين فانه يستطيع أن يرد علي ببساطة ، ويستطيع أن
يتحدث عن الخدوش في أطباق الذهب وذكرى كل خدش بالنسبة اليه والأقوال التي
قيلت لحظة احداث الخدوش ، والمناسبات التي تسجلها .. يستطيع الادعاء أن كل
صحن هو بالنتيجة أسطوانة ، خدوشها تسجل جلسات غالية بالنسبة اليه ، تماماً
كهوامش كتي . .

انه الجحيم ...
حين لا يبقى لك غير الصمت . حين تضطر للدخول الى قوقعتك كأية سلحفاة
مدعورة كي لا تطرح جواهرك قدام الخنازير فتدوسها بأرجلها وترجع اليك فتمزقك ! ..
انه الجحيم .

انه الصمت غير الودي . صمت العجز عن الالتقاء على جسر الحوار . صمت ما

قبل اختراع اللغة . صمت الكهوف . صمت الغرباء . صمت مدراء البنوك أثناء اجراء الحسابات دونما مبالاة بسقوط المحاور صريعاً بالسكتة القلبية .
انه الجحيم ... انه صبر روبنسن كروزو ...
انه الصمت داخل حجر الصمت . انه الصمت الميت المعزول . انه صمت الغرباء ...
انه صمت الذين لم يبق لهم من الجسور المهدامة غير جسر الأمل ... انه صمت الرماذ ، لا الصمت على صدر يوسف ... الصمت الفصيح .
آه يوسف ... يوسف ... يوسف ...

* * *

كابوس ١٤٨

جلس المستشرق على الشرفة العالية في القصر الكبير المطل على لبنان بأكمله .. لكن ستائر الشرفة كانت مسدلة بحيث لا يرى صاحب القصر وضييفه غير جزء معين من لبنان ...

أحد أعمدة الشرفة مبني من خشب الأرز والعمود الآخر من الجماجم ..
سيد القصر يداعب منظاره المكبر الذي يحلو له أن يرقب بيروت من خلاله ...
والمستشرق يداعب كأس نبيذه الأول ويكرر العبارة التي جاء من بلاده خصيصاً لتردادها : انه مجرد شجار بين محمد وعيسى .

* * *

كابوس ١٤٩

على رصيف الكورنيش الملاصق للبحر بيروت عشرات (البسطات) للبائعين الذين احترقت دكاكينهم بعد أن شب الحريق في أسواق بيروت سبعة أيام وسبع ليال

كانت بسطة محمد ملاصقة لبسطة عيسى ، وكان كلاهما جائعاً ، ينتظر من السماء رزقه ... هذه المرة كانت للسماء علاقة مباشرة برزقهما ، فالطقس السيء يعني عدم مجيء الزبائن الى تلك السوق الممتدة على طول رصيف كورنيش الروشة والطقس الماطر يعني تلف حاجياتهما القليلة التي يستعينان ببيعها على سد رمق أطفالهما ... وكانت السماء هذا الصباح غامضة ، محيرة ... تارة تنشق عن الشمس للحظات ، وأخرى تغيض أشعتها

لتحتل السحب الأفق بأكمله ...

تأمل محمد السحب الداكنة ، وبدأت له مثل أشكال غامضة ، أو رسالة تحاول أن تقول شيئاً ... قال ذلك لعيسى ، جاره في البسطة الفقيرة . لم يرد عيسى . كان هادئ المزاج وقلييل الكلام ، تقطر عيناه براءة وصفاء واعياء وفي يديه المعروقتين آثار مندملة كأنها بقايا جراح مسامير جرح بها كفيه أيام كان يساعد والده النجار في مخزنه ...

أما محمد فكان شديد الحيوية والتفاؤل ، يطلق صوته في أغنية عذبة كأغاني الرعيان ...

وبدأ الناس يقبلون على السوق .. بدأت حركة البيع والشراء كما كانت منذ فجر التاريخ ... لا آلات حاسبة .. لا دفتر ذمم .. لا فواتير ... ولعل النقود كانت الإشارة الوحيدة الى العصر ! ...

وكان المستشرق يرى ما يدور في قاع كأس النيذ ... وكان سيد القصر يتأمل المشهد بمنظاره الكبير ...

وفجأة ، هبت ريح عاتية ... وأظلمت السماء كما لو أن طائر رخ غامضاً قد حجب الشمس .. وبدأت المظلات والثياب والحقائب والمدافئ الكهربائية وزججات العطور والأحذية تتطاير في الريح الصرصر العاتية ... وبدأ الباعة المساكين يركضون خلفها ، والذين جاءوا يتبضعون يساعدونهم على جمع ما أمكن جمعه داخل أكياس شفافة من النايلون ... وخلف الرصيف كان هنالك كوم كبير من القمامة ما تزال النار « تعس » فيه .. تطايرت عنه الأكياس والشرر والجرير والرماد وعلت في الجو ثم أمطرت الجميع بمطر من سجيل والريح تنثر الرماد الملتهب في العيون التي جرحها البرد ... كان مشهداً خارجاً من أساطير المدن الملعونة التي كتب عليها العذاب تكفيراً عن خطيئة لا تغتفر ... كان عيسى يبيع الشموع المعقمة المصنوعة من الشحم وزيت الزيتون الناصري النقي ، والطيب يفوح من رائحة بسطته ... أما البسطة المجاورة لبسطته ، بسطة محمد ، فكانت تتضمن أشياء كثيرة عملية ، كماء الزهر ، وأقفال للصناديق ، وكتب مدرسية للأطفال ، وسجادات صغيرة ، وكثيراً من الصابون والطحين والطيب ... وحينما هبت الريح ، طارت عشرات (البسطات) بكل ما فيها ، والباعة يطاردون

بضائعهم ويساعد كل منهم الآخر في دوامة البؤس المشتركة .. وحين عصفت الريح اختلطت محتويات البسطين معاً ، وتعاون محمد وعيسى على الملمة أشياءهما المبعثرة في الريح .. كانا متعبين وقد احمر الخد الأيمن لعيسى فأدار الأيسر باتجاه الريح ، في حين لف محمد وجهه بقطعة صوفية وجلس وعيسى يحزمان بضائعهما في انتظار يوم أكثر صحواً ... وحين هطل المطر احتفى كل منهما بجسد الآخر ، وعانق جوع كل منهما جوع الآخر وفقره ...

في هذه اللحظة ، كان المستشرق يجرع كأسه ويؤكد مصرأ : ما يحدث عندكم هو شجار بين عيسى ومحمد ... ومسح مضيفه عدسات نظاره المقرب وقال : يجب حماية (الأقلية الراقية) بقوة السلاح ... والا أكلها المتوحشون ...

* - *

كابوس ١٥٠

صب المستشرق كأسه الثانية ، وكان النبيذ معتقاً والكأس من الفضة . وداخل الكأس شاهد أكواماً هائلة من القمامة ، وقد انجبت نحوها عجوز وكلب ضال ... بدأت العجوز تبحث بأصابعها المزرقة عن بقايا طعام ، وكلما وجدت حبة بطاطا نصف متعفنة أو كسرة خبز جافة وضعتها في كيس حملته بيدها الأخرى التي لم تكن مزرقة لأنها كانت عارية تماماً من اللحم وكانت سلاميات عظامها واضحة كما لو أنها ظاهرة من خلال أشعة إكس ...

أما الكلب فلم يكن يحمل كيساً وإنما دخل في كوم القمامة واللعب يسيل من فمه ، وغاب طويلاً ثم خرج واستلقى على أحد جانبيه قليلاً كأنه يفكر ، ولم يلبث أن بحث عن كيس وسط القمامة حملة باحدى قائمته الأماميتين ثم سار على قائمته الخلفيتين كأني رنجل يفتش عن رزق أسرته ، وبدأ يملأ الكيس ببقايا العظام كما تفعل العجوز ... كانت بين القمامة بقايا آذان بشرية مقطوعة وأنوف وأصابع ، للمها بكل فرح ... كان واضحاً أنها ما تزال طازجة ، وأنها مقطوعة منذ أقل من ساعات ، وحين شاهدها العجوز الجائعة التي لم تذوق اللحم منذ أشهر هاجمت الكلب وقد كشرت عن نايبها الوحيد المتبقين من أسنانها ... وعوت على الكلب فمضى خلفاً لها نصف الغنيمة ! ...

كان المستشرق يرى ذلك مرتسماً داخل الكأس ... لكنه لم يلق اليه بالاً . وإنما عاد يؤكد : قلت لكم ان القضية هي مجرد شجار بين محمد وعيسى . ومن الضروري حماية الأقليات بتدخل عسكري من قبلنا مثلاً .
أما مضيفه ، فقد رفع عن عينيه منظاره المكبر ، ولكنه كان على أية حال يحرق في ناحية أخرى ..

* * *

كابوس ١٥١

سكب المستشرق كأس نبيذه الثالثة ، وحقق في السائل الأرجواني المضيء بفضة الكأس الدساعة النقية ، وعاد يكرر : أجل : انه مجرد شجار بين محمد وعيسى . الصلح هو المطلوب . لا غالب ولا مغلوب .

وفي داخل الكأس ارتسمت بعض الصور والمشاهد ...

كانت هناك صورة لشاب جائع . كان جائعاً منذ وعى الحياة ، ولقيطاً أيضاً . لم يعرف له أباً أو ديناً ، وكان دينه الوحيد هو الفقر والطقوس الوحيدة التي يمارسها كل يوم : الجوع والتسكع ... وكان يحلو له التسكع أمام واجهات (الجالييريات) وصلات العرض الخاصة ببيع المفروشات ... كان يقف طويلاً أمام منظر المقاعد الوثيرة التي لم يضم جسده قط مقعد مثلها .. وكان يتأمل الفراش المستدير ، والأضواء المحيطة به ، وجهاز الراديو والهاتف الملصق به بحيث لا يضطر النائم فيه الى القيام بأية حركة ترهقه وتحول دون استرخائه ، واستمتاعه بموسيقاه ونسائه ... وكان يقف أمام واجهة معينة بالذات تقابل إحدى دور السينما ، فيتخيل الممثلات اللواتي تتصدر صورهن المدخل شبه عاريات ، ممددات في الفراش بالذكان المقابل ... ان الرجال القادرين على شراء فراش كهذا هم بلا ريب القادرون على الحصول على مثل هذه النسوة .. وهو محروم من ذلك كله ... ينام نصف ليله على كيس من الطحين ، ويقضي نصفه الآخر في عجن الطحين ونخبزه ، ومغازلة الخادومات البدينات المشققات الأيدي ...

حتى انتسب (اليهم) وصار بوسغه الحصول على اصبع من الديناميت ورشاش وما هو يركض في شوارع المدينة ... يرمي الديناميت على الفراش الذي طالما عذبه وأرقه ... يدمر المقاعد التي لم يستطع أبداً الجلوس فيها ... انه يشعر بالعداء ضد

كل تلك الأشياء الجميلة المترفة التي وجدت دوماً لتعذبه ، والتي أطلت عليه دوماً من خلف الواجهات ترافقها نظرات البائعات المليئة بالاحتقار لثيابه الممزقة وهيبته الرثة ، وكن أحياناً يطردنه بلغة لا يعرفها — ويعتقد أنها الفرنسية — فيفهم شتائمهن من لهجتهن ، وبعد أن ينهرنه يعدن الى كلابهن المرفهة ليدلعنها باللغة الفرنسية أيضاً ..

كان قد انطلق في الشارع كعاصفة ... يحطم برشاشه الواجهات ويضرم النيران في الستائر ... لاحظ ذلك أحد الرفاق . قال لصديقه وهما يختبئان بجذر خلف متراس بينما انطلق ثالثهما كالمجنون يحرق كل شيء ويدمر كل شيء : ماذا دهاه ؟ انه غير منضبط إطلاقاً ...

رد الآخر : ولماذا تلومه ؟ انه بشر . الثوار بشر لا (قديسون) . على الذين يربونهم في الحرمان أن يتوقعوا أن تكون ردة الفعل هكذا أحياناً .. قال الرفيق بحزن مردداً قولاً لأندريه مالرو : التعقيد هو مأساة الثورة ، لأن أحداً لا يثور بتجرد مطلق ... انتهره الآخر : وأولئك المفترسون الذين يسرقون لقمتنا ... هل كانوا يدفعون حقوقنا بتجرد مطلق ؟ ...

كان المستشرق يحدق في كأسه دون أن يرى جيداً ما يدور أو ينصت الى أحاديث الشبان الثلاثة ... جرع كأسه وكرر : انه مجرد شجار بين محمد وعيسى . أما مضيفه فسأل أحد رجال الحاشية بعد أن رفع نظاره عن عينيه : ما هذه النار المتصاعدة من الشوارع .. والدخان ...

أجابه أحدهم متملقاً : لا شيء . انهم يحرقون لك البخور يا مولاي ... ابتهاجاً بعهدك السعيد وعمرك المديد !

* * *

كابوس ١٥٢

سكب المستشرق كأس نيله الرابعة ... وداخل الكأس ارتسمت صورة رجل جاع طويلاً فخرج على الناس شاهراً سيف السرقة . سرق ثلاجة وباعها فوراً بثمن بخس ، وحين فتحها المشتري فوجيء بها مليئة بالطعام ! ... في البداية فكر بتقديم شكوى للشرطة واعادة الثلاجة الوردية الكبيرة الى أصحابها ، ثم لاحظ أنها تشبه كثيراً ثلاجة (البيك) الذي يعمل سائقاً لديه دون أن يقبض راتبه منذ أربعة أشهر بحجة أن

البنوك مقفلة ، ولا توجد (سيولة) .. ومع ذلك فالسيولة موجودة باسمرار للء
الثلاجة بأشهى أنواع الطعام التي لم يذقها من قبل وان كان يلمحها في طريقه للخروج
من باب الخدم بالمطبخ ! ...

شرب المستشرق نبيذ كأسه الفضية وقال بعد تفكير طويل : أجل ! بلدكم جميل
وساحر ، ومحفوظ كل من له مرقد عترة في لبنان . مشكلتكم هي فقط في الشجار بين
محمد وعيسى ..

أما مضيفه فتائب ... وجرع كأس العرق التاسعة ... وسأل أحد مهرجه :
كأنني ألح المدينة تحرق . أجابه المهرج : أنهم يشعلون البخور حباً بك يا مولاي !

* * *

كابوس ١٥٣

سكب المستشرق كأساً خامسة من النبيذ ، وصار يتأمل في نقوش الكأس الفضية
الثمينة دون أن ينظر جيداً الى ما يرتسم من أحداث على صفحتها القانية كالدماء ..
وعلى صفحتها القانية كالدماء ، كان أبو مروان يتحرك في الفجر المبكر بنشاط لا
يتناسب وسنه ... كان يكنس مدخل العمارة ، والرصيف أمام العمارة ، وحتى
الشارع أمام العمارة ... وقطته الصغيرة فلة تلاحقه مع كل خدوة وتموء وتموء ...
كانت الكائن الوحيد الحي في هذا العالم الذي يرتبط به ، أما أولاده السبعة عشر فكانت
صلتهم به كصلة أي أرنب بأولاده ...

رن الهاتف يناديه من احدى الشقق . تظاير بأنه لم يسمع وتابع عملية الكنس .
كان يحس بأنه في خير حينما يكنس فقط .. عاد الهاتف يرن . انه نزيل احدى الشقق ،
يريد منه جلب تاكسي يحمله الى المطار ، كلهم يسافرون ، كلهم خائفون على حياتهم
وعلى ممتلكاتهم . وأبو مروان الذي يعمل بواباً منذ نصف قرن ، لم يشاهد مثل هذا
الجنون يحتاج المدينة ...

يأتي سائق التاكسي . يريد ٢٥ ليرة لبنانية كي ينقل الزبون الى المطار . غضب
أبو مروان ، وتشاحن معه طويلاً ... وعبثاً حاول سائق التاكسي اقناعه بعدم التدخل
بينه وبين الزبون قائلاً : أولئك الذين يسافرون هم من الأثرياء ، لا من الفقراء
مثلي ومثلك فاتركني أفتش عن رزقي .. لكن أبو مروان لم يهدأ حتى استطاع انزال

الأجرة الى ١٥ ليرة ، وودع الزبون حاملاً له حقيبتيه ، متسائلاً بلهفة عن موعد عودته . بعد شهر ؟ حين تهدأ الأحوال ؟ أهلاً بك . اطمئن سأعتني بالشقة .

لم تكد السيارة تغيب حتى كان رأس أبو مروان يغيب خلف زجاجة الكونياك في شقة المسافر وهو يجرع منها جرعات كبيرة . شرب خمرة المسافر . وأعطى ما تبقى من الطعام لقطته فلة ... وأغار على الشقة فنظفها من محتوياتها ، ثم تابع غارته على بقية الشقق التي هجرها أصحابها موقتاً ..

كان صديقه أبو دعاس حارس المنطقة هو الذي يتولى تصريف المسروقات وبيعها . بل انه هو صاحب الاقتراح ... وهو يعرفه منذ كان يعمل حارساً للمنطقة ، ويسايره ويسامره وذات مساء أفهمه أبو دعاس أنه لن يعمل حارساً بعد اليوم بعد أن صار قانعاً بأنه يعمل حارساً للسارقين الكبار الذين يعيشون في الشقق الفخمة . وانه قرر الاستقالة من حراسة (الحرامية) ومن الجوع ، وبدء حياته على طريقته .

لم يفهم أبو مروان جيداً نظرية أبو دعاس . لكنهما شريكان ، والأمانة هي الشرط الأول ، وهما يقتسمان السرقات بكل أمانة وأخلاق ...

لقد ازدهرت أعمالهما كثيراً في الأشهر الماضية ... بل انضم اليهما الشرطي أبو شكري الذي أوكلوا اليه أمر إعادة المسروقات الى أصحابها .. وهو غالباً ما يفعل ذلك بعد انتقاء بعض الأشياء التي هو بحاجة اليها ... لقد أصبح الناس يتقبلون أي شيء هذه الأيام ، ومرة كان يعيد المسروقات الى أحد أصحابها وقد ارتدى (خف الصلاة) الذي احتفظ به لأنه كان بحاجة اليه . لقد شاهد صاحب المسروقات خف صلاته ، وهو واثق من أنه تبينه ، لكنه لم يجرؤ على قول كلمة واحدة ولو قال له كلمة واحدة لما توانى في الرد عليه . هذه الأشياء التي تستعيدها بصفتها ملكاً لك ، ألم تمتلكها عن طريق السرقة ؟ ... هكذا يتسامر أبو مروان ورفاقه كل مساء حين تجمعهم زجاجة ويسكي مسروقة ... وهذا المساء كان يتحدثهم الشرطي أبو شكري عن فرقة السرقة والتشليح التي نظمها ، واختصاصها سرقة المارة في شارع كليمنصو ...

وسأله أبو مروان : ولماذا كليمنصو لا شارع الرملة البيضاء ؟ ...

رد أبو شكري : الرملة البيضاء محجوزة لفرقة رئيسي ! ...

جرع المستشرق كأسه ، ولم يكن يسمع شيئاً من الحوار الدائر داخلها ... كذلك فعل مضيفه ، وكان النعاس قد بدأ يثقل جفونه . لكنه سأل للمرة العاشرة منذ الصباح : ما رأيك ؟ أجاب المستشرق : قلت لك انه خلاف بسيط بين محمد وعيسى . مستدبر الأمر ! ...

* * *

كابوس ١٥٤

سكب المستشرق كأسه السادسة من النبيذ ، وتابع تأمله في افريز النقوش على فضة الكأس المطعمة بنحیوط ذهبية ... آه كيف لم يلحظ الذهب ؟ ما أجمل هذه الكأس ... وبينما كان مشغولاً بتأمل شكلها ، لم يلحظ المضمون ، لم يلحظ الصور والأشكال التي كانت ترسم على صفحة النبيذ الأحمر بلون الدم ...

الدم ... لقد جرح نينو أصبعه في الظلام ... كان نينو نجم المجتمع الشهير يدعى الى الحفلات كلها ويلبىها كلها ... كان ثرياً ولد وفي فمه منجم من ذهب ، ولم يكن يحب النساء ولا يكرههن . لم يكن يحب السفر ولا يكرهه . لم يكن يحب خدمه ولا يكرههم . لم يكن يحب يخته ولا يكرهه .. شيء واحد كان يجعل الدم يتدفق الى عروقه كاللهب ، ويطير به الى ذرى النشوة والمتعة : السرقة ..

تلك السرقات الصغيرة التي كان يقوم بها في بيوت أصدقائه أثناء الحفلات ، وفي الفنادق الفخمة والنوادي الليلية الأوروبية والمتاجر الكبيرة .. في البداية أقلقه الأمر . ذهب لمراجعة طبيبه النفساني فقال له الطبيب ان اسم مرضه هو (كليبتومانياك) وانه لا ضرر منه ، ثم تقاضى منه مبلغاً باهظاً لقاء السماح له بممارسة هوايته الوحيدة ... وأفرد لمسروقاته غرفة خاصة .. وقبل أن ينام .. كان يدخل اليها كل ليلة ككاهن يؤدي صلاة ما قبل النوم ، ويتحسس مسروقاته بمتعة متناهية ... وكل قطعة منها تعيد اليه الرعدة التي انتابته لحظة اغتصابها ..

لكنه جرح اصبعه في الظلام حين أطبق على السكين الذهبية الخاصة بفتح الرسائل على منضدة مضيفه ... الذي حدث بالضبط هو انه انسل من الحفل الى غرفة المكتبة الى حيث حفظ موضع السكين جيداً ، ولم يكذب يده ليطبق على السكين حتى كانت يد أخرى تمتد في الظلام لتطبق على يده ...

شعر بقلبه يقرع مثل طبل في مآتم بدائي ... ترى هل هي يد مضيفه ، أم انه ثري آخر مثله يشاركه هوايته ؟ ...

ظلت اليد مطبقة على يده بقبضة حديدية . بينما أضواء اليد الأخرى النور ... وفوجيء بأنه أمام سارق عادي .. ملثم ... ثيابه تدل على رقة الحال ، لكنه يحمل مسدساً . سارق عادي ! شعر بالاحتقار ، وبالغضب ... انسحب دونما نقاش ، لم يقل أية كلمة ، أخلى الساحة للرجل الآخر الذي كان مستعداً للقتل كي يسرق . أية فظاعة ! . رجل يمارس السرقة كمهنة ؟ أي امتهان لجمال السرقة ، السرقة كفن ، السرقة للسرقة ذاتها ..

ومن يومها ، ونينو حزين مثل فنان شاهد الموناليزا تمارس الدعارة ، فقد صارت السرقة مهنة الجياع والعاطلين عن العمل ، وما أكثرهم والحرب الأهلية تلتهم كل شيء .. وصارت أخبار السرقات الكثيرة تؤله كأنها موجهة ضده شخصياً ...

وشكل نينو فرقة لمكافحة السرقة صرف عليها من نقوده الخاصة ، وحين قتل على يدي عصابة من الجياع اعتبرته الدولة شهيداً ، ورصع مندوب عنها تابوته بوسام كبير ... وقد حاولت جثته سرقة الوسام عن التابوت الا أنه كان محكم الاغلاق ! .. شرب المستشرق كأسه حتى الثمالة ، بينما كان مضيفه يحدق عبر منظاره الى

بيروت والنار تلتهم أطرافها ، وكرر السؤال وهو يتشاءب : أهذا حريق ؟ رد أحد الفصحاء من أفراد حاشيته : لا . لا حرائق . المدينة تنام بخير ، والساهارون عليها يحرقون البخور لأجل عينيك .. وكرر المستشرق نظريته : ما يدور هو مجرد سوء تفاهم بين محمد وعيسى .. سنصلحهما .

* * *

كابوس ١٥٥

سكب المستشرق كأسه السابعة ، وغاص في تأملات عميقة تحت نقوش الكأس وتسلق نتوءاتها وأرخی رأسه في خدر على الخيط الذهبي الزخرفي وكان له منه أمتع وسادة ...

وفي داخل الكأس كان السائل الأرجواني يغلي ... وعلى سطحه المليء بالفقاعات الدامية كانت صور كثيرة ترتسم ...

كان مئآت من الجياع الحفاة يهاجمون مستودعاً كبيراً للطحين والحليب المجفف في ضاحية يروتية ... أسر بكاملها ... بأطفالها ... بشيوخها .. بنسائها .. الكل جائع ، وكل حمل ما يستطيع حمله من أكياس ، غير عابىء بالرصاص الذي يطلق باتجاهه . أحدهم سقط تحت أكياس الطحين التي كان يحملها ، فانسكب الطحين على وجهه فمات مختنقاً وقد ملأ الطحين رثيه بدلاً من معدته ...

في المساء ذاته ، كان أحد رؤساء تحرير صحيفة يروتية يرفع قدميه فوق الكرسي المخملية الأرجوانية الصغيرة تحت الطاولة ويعلق باستنكار : يا للهمجية ! ... وكان فرحاً لأن طائرته ستقلع بعد قليل الى حيث أسرته في باريس ..

رفع المستشرق كأسه ليتجرعها ، فوقعت نظراته صدفة على مشهد الجياع الراكضين حفاة عبر سحب الدخان حاملين أكياس القمح والحليب المجفف .. فاندلقت الكأس من يده ...

لكنه قرر أن لا يصدق عينيه ككل الرومانسيين وقال بهدوء مؤكداً : كل ما في الأمر هو مجرد سوء تفاهم بسيط بين عيسى ومحمد ...

* * *

كابوس ١٥٦

سكب المستشرق كأساً ثامنة من النبيذ بدلاً من كأسه التي اندلقت ، ومن جديد غاص في تأملات عميقة داخل نقوش الكأس الثمينة .. وداخل الكأس كان السائل الأرجواني يغلي ، وعلى سطحه المليء بالفقاعات الدامية كانت صور كثيرة ترتسم ... ولكن المستشرق كان مشغولاً عنها بتقييم ثمن الكأس ..

كانت هنالك صورة رجل يلتقط في الصباح البارد رسالة دفع بها مجهول تحت بابيه . تقول الرسالة : الى ... وعائلته ، غير مرغوب بكم في الحي . غادر المنطقة قبل أن ينسف البيت بك وبأسرتك . ملاحظة : أنت مراقب دائماً . لا تنجر أحداً بذلك .

لم يصدق عينيه . لا يمكن أن يقذف به خارج الحي بعد ربع قرن من نمو جذوره داخل ترابه ، لمجرد أنه من دين آخر . لكنه كان يعرف أنهم لا يمزحون ... وامتلاً قلبه بسائل حامض أسود ...

ودهش جيرانه في المساء ، حين شاهدوه يعود وقد اشترى خزانة حديدية كبيرة

يرافقه حمال ينوء تحتها وغاب في البيت طويلاً حتى أدخلها ... فقد كان الجميع يعرفون أنه لا يملك ما يسد به رمقه ورمق أسرته ، لكن صبيان الحي المسلحين قرروا : هذا اللعين ، لديه أموال يخترنها ، وبدلاً من أن يهجر الحي ، ها هو يشترى خزانة حديدية ! سيدفع الثمن غالياً ... لن يستولوا على بيته فحسب ، بل وعلى نقوده ، وإذا لم يخرج منه حياً أخرجه منه ميتاً وغرسوا جثته تحت الجسر حيث مزرعة الجثث الخاصة بهم ...

ولكنه فاجأهم جميعاً ، اذ غادر بيته عند الفجر ومعه أسرته وحاجيات قليلة من أمتعته ...

ووقف المسلحون يرقبونه وهو يغادر بيته وقد ترك الخزانة الحديدية بالداخل . الأحق ! هل يظنهم عاجزين عن فتح أية خزانة حديدية وهم الخبراء بالسرقة ؟ ... دخلوا الى بيته يعربدون . أدهشهم أن طعام الافطار كان جاهزاً ومتروكاً لهم على المنضدة .. ما أغرب أطوار هذا الجار ... كيف لم يلحظوا ذلك من قبل ؟ كان قد ترك لهم قلباً مشوياً وكبداً نيئة وبصلاً وبطحة عرق كبيرة ، وغيرها من مقومات طعام الفطور على الطريقة اللبنانية جداً ...

أكلوا القلب المشوي ثم الكبد النيئة الدامية كما لو كانا قلب وكبد صاحب البيت ، وشربوا ضاحكين وهم ينتظرون وصول زميلهم المتخصص في فتح الخزائن الحديدية . فجأة رن الهاتف . أجاب أحدهم . فوجيء بصاحب البيت يسألهم هل هم راضون عن الافطار الذي كان قد تركه لهم . وهل هم مرتاحون في بيته ، وهل هم في حاجة الى أية خدمة ؟ ..

همس المسلح لرفاقه : انه مجنون ... ثم قال له ساخراً : نعم . نسيت أن تترك لنا خزانتك الحديدية مفتوحة ، أم انك تظن طعام الفطور رشوة كافية لتتناسى الخزانة ؟ ... لكنه ذهل حين سمع الجواب : طبعاً الخزانة تحت أمركم ... وقد تركت لكم تعليمات فتحها في ورقة وضعتها على الخزانة ! .. إن ما أملكه تحت تصرفكم ... سأبقى معك على الخط ريثما تتأكد من وجود الورقة ومن فتح الخزانة ، والا عدت بنفسني الى الحي - اذا سمحتم - لأفتحها لكم ...

وذهل المسلح قليلاً ، وقال لنفسه : الدنيا مليئة بالجبناء والأغبياء ... والمجانين ...
وبالفعل ، وجد ورقة تعليمات فتح الخزانة في موضعها .. قرأ الأرقام التي عليه
أن يدير أقراص الخزانة وفقاً لها ، وأدار الأقراص ، وهتف رفاقه حين لاحظوا أن
المقبض يدور ، وها هو يفتح الخزانة ... وفجأة دوى انفجار اهتر له الحلي بأكمله ...
وأغلق صاحب البيت سماعة الهاتف مسروراً ! ... وانطفأت الصور على صفحة
كأس النبيذ ... ولم يسأله مضيفه شيئاً لأنه كان قد راح في سبات عميق ...
لم يقل المستشرق شيئاً . لم ير شيئاً ... كان قد حلق على أبجرة النبيذ الى منعطف
الشخير ... وأكد أحد أفراد جوقة المتملقين مردداً كالبيغاء : انه شجار بين محمد
وعيسى .. مجرد شجار .. سببهما ! ...

* * *

كابوس ١٥٧

انه الجحيم ...
وأنا جائعة حقاً ... انه الجوع الارغامي المروع لا جوع الصائمين الراضين ...
انه جوع المقموعين لا جوع النساك الزاهدين ، الذين تواطأت حواسهم مع عالمهم
الداخلي على المشي في درب الجوع حيث يصير الجوع سلاماً ...
انه جوع الثورة ... وذلك الألم في أحشائي ليس خواء بقدر ما هو قبلة مستعدة
للانفجار ... مغفورة خطايا الجائعين ... مغفورة آثامهم ... مغفورة أحقادهم
ونيرانهم ...
قبل قليل غادر أمين الغرفة ، وها هو يعود ، ويخيل الي ان خديه قد توردا قليلاً ...
لقد أكل ! صرت واثقة من أنه كوالده ، أخفى لنفسه حصة اضافية من الطعام ...
كانت غلطة فادحة اني منذ اليوم الأول حملت كل ما في بيتنا من طعام الى هنا ...
لم أكن بعيدة النظر ... لم أعرف هذا الجوع الشرس من قبل لأتعلم كيف أحتاط لمواجهته
فيما بعد ..

لكنني جائعة ... وتعلمت ...

أُتسلل الى (السقيفة) المعتمة حيث كان الخادم ينام ...
فقد تذكرت أنه كان يقبض بيده على موزة سرقها ليطعم بها قرودة أمين .. والموز

(مفقود) في البيت منذ اليوم الثالث ... اذن لديه مخزون من الموز على الأقل ...
ألفت عيناى الظلمة ... قلبت وسادته فلم أجد شيئاً ... قلبت السرير المهترى فلم
أجد شيئاً ... انحنيت لأحرق تحت السرير . كنت متعبة . أراخني أن أدب على أربع
وكأى حيوان جائع في الغابة كنت أفتش عن لقمة ... ولم أجد شيئاً تحت السرير ...
وتابعت البحث في جوانب الغرفة ، ثم في نافذة ضيقة ، وهناك وجدت كترأ ... كان
هنالك أربع موزات وبرتقالة وثلاث تفاحات وقطعتا بسكويت وسبع زيتونات وكوم
من كسرات الخبز الجافة ، وكانت وليمة لن أنساها ...

التهمت بعض ما وجدت بسرعة قبل أن « يضبطني » أمين وأخفيت الباقي جيداً
تحت كوم من الجرائد العتيقة ، وهبطت من (السقيفة) بينما كان أمين يصرخ بشيء من
الدعر : أين أنت ؟ ..

ودخلت الى الغرفة ، ولوحق جيداً لشاهد في عيني النظرة شبه المذنبه نفسها التي
شاهدتها في عيني ، ساعة عاد من عشائه (السري) ... لكنني كنت ما أزال جائعة ...
وقررت أن أتسل حينما يهبط الظلام لألتهم الموزة التي ما تزال جثة الخادم تقبض عليها
بإصرار ... أم تراني أطعمها للقردة كما كان ذلك الانسان النبيل ينوي أن يفعل ؟ ..
انه الجحيم ...

وأنا جائعة ... بل اني أكثر جوعاً مما كنت عليه قبل التهام وجبتي النحيلة ... كل
ما حولي يصرخ بالجوع .. الجوع الى الطعام .. الى الشمس .. الى الحرية .. الى الفرح ..
انه الجوع ...

وأستطيع أن أسمع مخلوقات دكان بائع الحيوانات الأليفة وهي تعوي جوعاً ويمتدح
في صرخاتها الأنين ...
أنظر الى ساعتى ، لا أجدها ، لا أعتقد أنها سقطت من يدي . لقد ذابت وانتهى
الأمر ! ...

ولكن ، ما جدوى الساعة ؟ .. انها العتمة وقد بدأت تخيم ، والبرد الشرس يتسلل
الى نخاع العظام دونما ضجيج ، دونما رياح أو أمطار ... واذا سطعت شمس الغد ،
فستكون قارسة شتائية ...

والعواء يتصاعد من دكان بائع الحيوانات الأليفة ، صرخات جوع مريرة لا يخطئها

الا الشبع ...

إذن ما زال الكلب الجريح على قيد الحياة قادراً على الدفاع عن نفسه ، ولعله يغالب النوم كي لا يغمض عينيه فيؤكل ..
واكتشفت انني أغالب النوم ... كنت مرهقة وضجرة ... قلت لأمين : سأنام .
قال بخوف : وأنا ؟

— أرجو أن يسامرك اللصوص ! ...

لم أكن أدري أنها لم تكن نكتة ، بل نبوءة . وطبعاً كان علي أن أنام حيث أنا ،
ما دام الصاروخ غير المنفجر ما يزال يرقد الى جانب فراشي . جعلت من الحقيصة
البرتقالية وسادة لي ، ولعلي غرقت في نوم عميق رغم دوي الصواريخ ... حتى
الصواريخ ، يمكن للانسان أن يألف دويها اذا ... اذا (تعاطاها) فترة كافية ...

* * *

كابوس ١٥٨

الفندق فخم والسهرة حافلة ، الريح جبلية في ضواحي قرية لبنانية (سياحية) .
والثلج دافئ . النساء جميلات وفارغات والرجال يهزون كروشهم باسم « الرقص
الحديث » ... فالليلة عيد الميلاد .

والفندق فخم والسهرة حافلة .

المرأة عرت صدرها احتفالاً بميلاد المسيح ، المرأة ألصقت رموشاً اصطناعية
احتفالاً بميلاد المسيح . المرأة قضت يومها في دكان الحلاق احتفالاً بميلاد المسيح ...
زوجها اشترى في الصباح صفقة سلاح وزعها على السذج وحثهم على القتل باسم المسيح
ثم غسل يديه بسرعة واستحم بכולونيا (بروت) وجاء يشمل ويغازل زوجة جاره يلتصق
بجسدها تحت ستار الرقص احتفالاً بمولد المسيح ...

وفي هذه اللحظة ، كانت جراح أحد الرجال ما تزال تنزف من موضع المسامير
المدقوقة في يديه وقدميه العاريتين ، ومن اكليل الشوك المغروس في رأسه وجبينه ، ومن
جسده المدمى بضربات الأذى ، وثقل الصليب الذي يحمله على ظهره راكضاً به في
دروب العالم منذ عصور .

جاء من يقول له : أيها الرجل الجريح ، هناك من يحتفل بميلادك ... لماذا لا تذهب

الى هناك لتستريح ليلة ؟ ..

قال : نسيت الراحة ... لقد غسلت وجه الكرة الأرضية بدمي . لم أذهب الى مكان الا ودقوا في لحمي مسماراً إضافياً ... انهم يقتلونني باستمرار تحت شعار حبهم لي .. قال له الرجل : لكن أولئك يشنون حرباً (مقدسة) باسمك ويموتون لأجلك اذهب اليهم فقد تنعش قلوبهم .

أسند الرجل صليبه الى سديانة عتيقة ، وغسل جراحه الدامية في جدول نقي لكن نرفها الذي دام حوالي الفي عام لم يتوقف ، وقرر الذهاب الى سهرة أولئك الذين يموتون لأجله .. كانت ثيابه ممزقة ، لكنه قرر أن هذه التفاصيل السطحية لن تضايق قوماً يقيمون احتفالاً لأجله هو .. حين وصل الى الباب استقبله بعض المسلحين . سأله :

ماذا تريد ؟

قال : سمعت انهم يقيمون سهرة احتفالاً بميلادي ، فقررت أن أجيء اليهم بنفسي ! .

انفجر أحد حراس المكان بالضحك وقال ساخراً : انه مجنون .. انه يتوهم نفسه المسيح .. انظروا الى ثيابه الرثة ..

وأجاب آخر : ولماذا لا يكون هو المسيح حقاً ؟ ألمجرد أن ثيابه رثة ؟ أم لأنه غريب اللهجة ؟ .

وركم عدد كبير من المسلحين قرب جراحه بنحشوع وقد تركوا أسلحتهم وصاروا يتمتمون الصلوات ...

الا أن الصبي المراهق ابن الثري صاحب الفندق انتهرهم وصرخ بهم وقد التمع في صدره صليب فضي كبير ، وفي يده رشاش حديدي الأخمص : انهضوا أيها الحمقى الفقراء .. سأستجوب هذا المشعوذ أولاً ... وقال مخاطباً المسيح : هل أنت مسلح ؟ أجاب المسيح : لم أحمل السلاح طوال حياتي . لقد أدركت الخلد الأيسر طيلة عصور .. أما الآن فمن واجبي أن أحمل السلاح دفاعاً عن .. الانسانية .

صرخ المسلح المراهق : ما هو دينك ؟

أجاب المسيح : ديني المحبة .

صرخ المسلح : لم أسمع بدين كهذا ، قل باختصار : أنت مسلم أم مسيحي ؟
أجاب المسيح : ما معنى هذه الألفاظ ؟ عاد المسلح الى الصراخ وقد استفزه فقر الغريب
وهذه : هل أنت ابن « المنطقة » ؟ أجاب المسيح بهدوء مضيء : نعم ولا ...
وتابع الطييون البسطاء صلواتهم .. الا أن المراهق ابن الثري ضربهم بالسوط
وذكرهم بالويلات التي يستطيع أن يطرها عليهم وعلى أسرهم ، فنهضوا حاملين
أسلحتهم على مضض وفي عيونهم دموع شبيهة بالندى ...
تابع ابن صاحب الفندق استجوابه : ان وجودك يشكل خطراً على فندقنا ، وعلى
زواره من السواح وعلى قواديه وعاهراته .. ما هي جنسيتك أيها الغريب ؟ لهجتك
ليست لبنانية ..

قال المسيح : أنا فلسطيني ، وصرخ المراهق المسلح بقرف : فلسطيني !! يا
للعار ! أنت متسلل . مخرب ، عميل ، متواطئ على سلاطة المردة . مجرم . عدو الأمة
اللبنانية الخالدة .. وهنا انضمت الى المراهق أقلية شهرت السلاح في حين أجاب المسيح
بهدوء : ولكنني المسيح أيها الحمقى .

قالوا : المسيح ؟ لا يهم . المهم انك فلسطيني .. فلسطيني . وأحاطوا به ، وصلبوه
على باب الفندق الفخم بينما كان أكثر البسطاء يكون وبعضهم الآخر يسقط صريعاً
برصاص المراهق . دقوا المسامير في يديه ، تماماً في موضع المسامير التي سبق أن دقت
فيهما منذ حوالي الف عام ، وفي قدميه ، ولكن أحداً في انداخل لم يسمع أصوات قرع
المطارق وهي تغرز المسامير في جسده الشفاف .

فقد كانت الموسيقى عالية وجسد زوجة الحار لدناً طرياً والرقصة مثيرة والخمرة
قوية وفاجرة ..

وحين انتهت السهرة ، وخرج الجميع ، شاهد بعضهم شاباً نحيلاً مصلوباً فوق
باب الفندق الفخم .. وسألوا من هو ولماذا هو مصلوب هكذا ، فأجاب أحد
المسلحين : انه فلسطيني مخرب . صرخت امرأة ثملة : لن أضيء شمعة لأجله ! صرخت
أخرى : لن أصلي لأجله . صرخت ثالثة : ثيابه قذرة ! ومضوا الى بيوتهم والاشمتراز
يغمرهم . فلسطيني ؟ يستحق مزيداً من المسامير ! ... وفي بيوتهم ، تابعوا الاحتفال
بميلاد المسيح .

كابوس ١٥٩

الغرفة أسطوانة كبيرة مثل أحد المجارير العملاقة جداً ، تفوح منها أيضاً رائحة
المجارير . الأرض مغطاة بالمطاط الأسود . الجدران مغطاة بالصدأ .

شادي جالس الى منصدته ، والعاشرات يحطن به ، أجسادهن مترهلة ،
ووجوههن من الشمع الملون .

منذ غادر السجن وهو يعتقد بأن الحرب فرصة هائلة لجمع المال ، وهو يريد أن
يجمع ثروة ليهرب من هذا الجحيم فيما بعد ويقطن جنيف .. وسيصير دفتر شيكاته
خارطة وطنه .. سيفعل أي شيء كي يصير غنياً ..

القهر الذي عايشه وعاناه في السجن علمه أن المجرمين الكبار يرتعون خارجيه ، في
حين ينوي الصغار بداخله .. وهو قد قرر أن يصير من (الكبار) منذ غادر السجن ،
وقد حقق الكثير من (آماله) في هذا المجال ..

.. واليوم يأتي زعيم إحدى (الدكاكين المسلحة) — المندسين بين أوساط الثوار
الشرفاء — لقضاء سهرة ممتعة .. وهو يستعرض عاهراته ليقدم له أفضل ما لديه دون أن
يعثر بينهن على من تفني بالغرض المناسب .. ثم ان لديه متاعب أخرى كثيرة : لقد
تساجر البارحة مع أحد شركائه في تجمع « مافيا المتنفذين من الحرب » وابتكب خطأ
فادجاً حين هدده بالقتل .. كان من المفروض أن يعامله بود ثم يرسل من يقتله
برصاصة (طائشة) ... هذا الرجل قادم من زعيم (الدكان) الفكرية المسلحة ، وعليه
أن يثبت له حسن نيته كي يقدر فيما بعد على (تصفيته) ... والعاشرات المتبقيات في
بيروت بشعات كالحرب .. مشكلة أخرى تقلقه ..

فقد شكل عدة فرق للسطو المسلح على البيوت والمارة ، وهو واثق من أن رؤساء
هذه الفرق (يغشون) فيسرقون من السرقات أكثر من النسبة المئوية التي سبق الاتفاق
عليها ..

آه متاعب متاعب ...

ها قد وصل زعيم الدكان ورفيقه ، وهو لما يجد بعد امرأة مناسبة يقدمها هدية ،
امرأة فيها بعض نضارة النساء اللواتي لم يصبح جسدهن عملة متداولة ...
تذكر امرأة ، تنطبق عليها هذه الصفات ... ودون أن يرف له هذب أعطى

مواصفاتها : انها تقطن في بيت مقابل لفندق « الهوليداي إن » ، وهي الآن وحيدة
المطلوب اختطافها بأسرع وقت .
.. ولم يقل لهم أنها أخته ! ..

* * *

كابوس ١٦٠

... استيقظت وأنا أصرخ : أين أخي .. أين شادي ..
كان الظلام ما يزال دامساً ، وخيوط ما قبل الفجر الرمادية الداكنة تلف الكون ...
وكأن عواء الجوع القادم من دكان بائع الحيوانات الأليفة يهز الأشجار والتراب ...
وقررت أن ألقى نظرة ، قبل أن أصير هدفاً مثالياً للقناصين . كان أمين ما يزال يغط
في سباته ، وشخير خافت غير رتيب ينبعث منه ، كأنه ما يزال خائفاً ومرتبجاً حتى
وهو نائم ...
غادرت الغرفة .

تركت باب المطبخ المطل على الحديقة مفتوحاً .
مررت بالبرميل حيث جثة العم فؤاد . رائحة كريهة تنبعث منه . أو هكذا خيل
إليّ ... لم أشعر بأي ندم لما اقترفناه ، فأنا لا أرى فرقاً كبيراً بين البرميل والتابوت
والقبر ، بين أن يرمى بالجثة للنسور أو تحنط أو تحرق وينثر رمادها فوق المحيطات ..
نحو جثة الخادم اتجهت ، كان الظلام ما يزال مخيماً ، ولم أكن أرغب في القاء
نظرة الوداع على أية حال ... حاولت تخليص الموزة من يده ، ولم أكن قد قررت ما
إذا كنت سأطعمها للقردة أو نتقاسمها .. أو أكلها وحدي - على الأرجح - ! ولكن
أصابعه كانت قد استحالت الى أصابع تمثال حجري وانسحقت الموزة وكان ملمسها
في الظلمة مرعباً وحيماً .. فمضيت نحو النافذة المطلة على مخزن دكان الحيوانات الأليفة ...
كانت خيوط الفجر الرمادية قد بدأت تمتد الى الزوايا المعتمة في الدكان ، وكنت قد
اتقنت لعبة التحديق في الظلام كأية بومة وحيدة في غابة من الرماد ...
أغلقت عيني قليلاً كي تألفا الظلمة ، ثم ألصقت وجهي بالشبك الحديدي للنافذة ،
وقد حميت عيني بيدي كالمنظار دفعا لأي ضوء خارجي ...
لم أر كثيراً ...

كان كل شيء كما تركته ، وكما تخيلته ...
في الأقفاص ، أيقظت خيوط الفجر الرمادية الحيوانات من نومها القلق المضطرب ،
وبدأت تتعالى صرخات الجوع من الأقفاص ، رغم أنها لم تصمت حتى خلال نعاسها
الشبيه بالنوم ...

كان هنالك كلب جريح ... لم أر بوضوح ذلك ، لكنه وحده من دون بقية
الكلاب ظل قابلاً في مكانه يهيمهم ، بينما بقية الكلاب تدور بين الأقفاص وأصوات
جوع جنونية تنبعث منها ...

لا أدري كم طالت وقفتي ، لكنني سمعت حركة غير عادية في قفل باب المخزن
أم تراني واهمة ، لا لم أكن واهمة ؛ فبعد قليل انشق الباب وارتمى شعاع قوي من النور
داخل المخزن ...

انه صاحب الحيوانات الأليفة ... لم أر وجهه ، فقد كان يقف في ظلام نسي
خلف المصباح اليدوي الصغير (البيل) الذي يمسك به لكنني شاهدته يحمل كيساً كبيراً
باليدين الأخرى ...

اذن جاء يطعمها بعد أن أشرفت على الموت .. جاء يسقيها كي لا تموت تماماً
ويفقد تجارتها بها .. انه ما يزال يأمل في إمكانية عقد صفقاته ، ولو عن طريق بيعها
بأنفس ثمن .. فالتجارة هي التجارة ...

أتراه صاحبها ، أم تراه سارق عاثر الحظ ؟
وسمعتة يصرخ بأسمائها ، كأنه يستعين بها على خوفه .. بل لعله للمرة الأولى يناديها
بهذه الحرارة ..

كان يقول : بوبي .. كيكا .. سيمو .. جاء البابا بالطعام ..
وفجأة ، انقض عليه الكلاب المطلق سراحهم . سقط المصباح من يده وتدحرج
ولم ينطفئ ، وكنت أستطيع أن أرى المشهد المروع بوضوح ..
لقد انقض الكلاب الخمسة عليه يمزقونه .. حتى الجريح منهم شارك في حفلة
النهش ... صرخ مدعوراً ثم سمعت صوت قرقة حنجرتة تحت أنياب أحد رعاياه ..
مزقوا ثيابه .. وكانوا يلتهمونه التهاماً .. وكنت أناملهم وأنا مسمرة شبه مسحورة ..
كان المشهد لا يصدق ، كأنه طالع من عمق الأساطير ...

وحين انتهى الليل تماماً ، وطلع الفجر كانوا قد أكلوه ولم يتركوا منه سوى البقايا ، ثم خرجوا واحداً بعد الآخر من باب الدكان نصف المفتوح ... وكنت أحرق ببقايا دمه ولحمه الممزق ووجهه الذي تحول الى عجينة تبرز منها عظام ناثرة ، وعنقه الخاوي إلا من العظام حتى ان رأسه بدا لي كما لو كان مقطوعاً بمقصلة حادة . لم أشعر بالخوف ولا بالشفقة ولا بالمفاجأة كنت أعرف أن ذلك لا مفر من أن يحدث .

الغبي ! ... هل كان حقاً يتوهم أن هذه الحيوانات لا بد أن تبقى في القفص بانتظاره وهي تحتضر جوعاً (ووفاء) له ؟ ألم يتوقع أن يدي (الغريبة) ستساهم في إطلاقها ، وأن يدي ليست (يداً غريبة) ما دام هناك مصير واحد يربطنا .

الغبي ! يبدو أنه غير مطلع تماماً على أنه حتى للكائنات الأليفة المسالمة أنيابها وجوعها وغضبها . جاءها أعزل حتى من سوطه .. لأنه لم يتخيل ولو لثانية وحدة أن ما حدث يمكن أن يحدث .. كان الفجر قد انبجج تماماً ، وأنا هدف مثالي لأي قناص ...

وركضت عائدة الى البيت ، بعد أن (تصبحت) بجثث ثلاث : واحدة في البرميل ، وأخرى تحت النخلة ، وثالثة لم يبق منها غير هيكل عظمي وكومة من الثياب ...

أما الجثة الرابعة فقد كانت تنتظرني في الداخل . كانت جثة أمين ، وكانت جثة ناطقة لأنه كان يصرخ بي : أين هربت ؟ لقد هاجمني السارقون ...

في البداية لم أصدق ... كان يتكلم بلهجة هستيرية الى حد أنني لم أصدق ، وإنما اعتقدت بأنه يحاول استدراج شفقتي كي لا أغادر الغرفة ...

لكنني لاحظت أن زجاج النافذة كان مكسوراً ...
سألته : رصاصة ؟

قال : بل السارقون . أقسم لك . لقد استيقظت على صوت الزجاج وهو يتكسر ، وعدة وجوه تملأ النافذة ، لامرأتين وصبي ورجال .. صرخت في وجوههم هلعاً وصرخوا هم أيضاً هلعاً وهربوا وهربت ! ...

اذن تم إعلان حيناً منطقة ميتة ، وها هي قوافل الغربان الجائعة تأتي حافية لتبلملم الكنوز من حول الجثث ... لكنهم فوجئوا بوجود شخص حي هنا ، بقدر ما فوجئ هو بقدمهم ...

مغفورة خطايا الجائعين ... مبارك كل ما يحرقونه أو يدمرونه ، فقد عرفت حقاً

معنى الجوع ! ..

* * *

كابوس ١٦١

لم أصدق رواية أمين تماماً إلا حين تلصصت من طرف النافذة ، وفوجئت بصرة مرمية على الأرض نصف مفتوحة تضم مسدساً ومعطف فراء وبعض الأشياء الأخرى التي لم أتبينها جيداً في الضوء الخافت للفجر ..

اذن لم يكن يكذب ...

قوافل الغربان الجائعة ، تجتاح أحياء بيروت المحروقة التي تحولت الى مقابر ... لكنهم فيما يبدو لا يقربون الأحياء بعد ، تماماً كما كانت مخلوقات دكان الحيوانات الأليفة تنتظر موت الكلب الجريح لتلتهمه . ولعلهم في غمرة هربهم أسقطوا بعضاً من غنائمهم ...

أتأمل الصرة نصف المفتوحة ...

وحده المسدس التمع عند ذلك الفجر الحزين ..

وحده المسدس من دون كل ما يحيط به من فراء وأشياء ثمينة تعلقت نظراتي به .

فيما مضى كنت أمقت السلاح ... حتى مقلاع الحصى (النقيفة) التي يلعب الصغار بها لصيد الطيور كنت أكره مجرد النظر إليها .. ولم يسبق أن أهديت لطفل دمية تمثل مسدساً أو رشاشاً أو أية أداة عنف ..

ومرة أهداني صديق ضابط مسدساً صغيراً ثميناً ذهبي المقبض يعتبره الهواة قطعة نادرة ، فأهديته بدوري الى إحدى الصديقات وقطعت صلتي بالضابط

أما الآن ، بعد ان مررت بمدينة الجوع والخوف والذعر والعنف . فأني أتأمل المسدس مسحورة وفرحة ، وذهني يرسم طريقة الحصول عليه من موضعه في الحديقة دون التعرض لرصاص قناص ...

تراني اريد مجرد امتلاكه ؟ ام تراني على استعداد لاستعماله أيضاً اذا دعت الحاجة ؟ .. تراني اريده لحاجة نفسية فقط ؟ ام انني صرت مهياً لإطلاقه ، انا التي كان يروعني قتل بعوضة ؟ ..

لم اكن على استعداد للتفكير بذلك كله . وادركت . العنف لا يفلسف ، وانما

يمارس ! ... وصار همي الوحيد ذلك الفجر الجديد ان امتلك هذا المسدس المرمي خارج النافذة ..

سألت امين : هل في بيتكم مغناطيس ؟ ...
دهش . كان لا بد من طرح السؤال بصورة مبسطة .
— هل في بيتكم ادوات خياطة ؟ ..

كنت اعرف ان امه كانت تأتي بخياطة تقضي النهار في بيتها ، وتخييط لها ثيابها ...
اذن لا بد من وجود بقية عدة الخياطة التي من بينها (الماكينة) التي شاهدها مراراً ،
وقد يكون من بينها المغناطيس الذي يجمع دبائيس الخياطة عن الارض والمقاعد والمساند
والوسائل .. في علبة خاصة بأدوات الخياطة وجدت المغناطيس . في درج بالمطبخ وجدت
خيطة من (المصيص) . ربطت المغناطيس بالخيط ورميت به من النافذة قرب المسدس .
كان علي ان احاول عدة مرات ففعلت حتى استطعت ان اصيب هدفي : المسدس .
انجذب المسدس الى المغناطيس والتصق به ، ومن موضعي ، خلف الجدار قرب
النافذة ، حاولت الاستحواذ على المسدس دون ان اكون هدفاً ممتعاً لقنص صباحي ...
وبدأت اشد الحبل والمغناطيس المعلق به والمسدس الملتصق به ... بدأت الخطة
بالنجاح ، وانزلق المسدس والمغناطيس معاً على الارض حتى صارا تحت النافذة تماماً .
الا ان المسدس انفصل عن المغناطيس وسقط حين بدأت بشد الحبل لرفعه عن الارض ..
لقد كان وزن المسدس اكبر من قوة جاذبية المغناطيس المعد لحمل الدبائيس لا المسدسات .
.. وفشلت الخطة العسكرية الاولى التي رسمتها في حياتي ! ...

* * *

كابوس ١٦٢

الكهرباء ما تزال ميتة . الهاتف شبه ميت ، لا (حرارة) فيه ، لا يرن ، ولا يستطيع
اجراء المخابرات منه .. لم اعد اذكر عدد ايام سجنى وانقطاعي الكلي عن العالم ، لكنني
واثقة من أنها تزيد عن الاسبوع .. اختفى امين من الغرفة ، وعرفت انه ذهب يلتهم ما
سبق أن أخفاه من كسرات الخبز .. فعلت الشيء ذاته . تسللت الى (السقيفة) حيث
خبأت ما ورثته عن الخادم من كسرات خبز جافة ، وأكلت ، ولاحظت ان القفزان
شاركني بعضها ثم هبطت الى المطبخ لاشرب بضع جرعات من الماء المغلي المقرف

المليء بالكلس الذي جعله الغلي ثم التبريد كملح مر المذاق .. وبينما كنت اغالب نفسي
كي ابتلع ما يكفي لبقائي في قيد الحياة ، حدث الزلزال .
لقد ارتجف البيت العتيق بأكمله ، وسمعت انفجارات مروعة وسقوط الزجاج
المحطم على الارض .. بقيت جامدة في مكاني وشعاع شمس بارد يلتصع كنتصل سكين
فوق انياب الزجاج المهشم ..

وعيت ان البيت العتيق قد اصيب اصابة مباشرة ... انك بطريقة ما تعرف هذه
الاشياء وتقدر على تحديد ها حتى قبل ان تتحقق منها بالحواس الخمس ... هنالك حواس
كثيرة منسية ومهملة ومجهولة تمارس مهامها حين يسكن الانسان على الخيط الفاصل بين
الحياة والموت ... هنالك محركات سرية كثيرة تعمل في داخله ، وتمده بالطاقة والمعرفة ...
والشراسة المذهلة ...

للهولة الاولى قررت ان الصاروخ النائم فوق المقعد في الغرفة التي كنت انام فيها ، قد
صحا ، وانفجر اخيراً ... هكذا على الاقل تمنيت ان اعتقد ... لكن سقوط كتل الحجارة
من الطوابق العليا الى الحديقة جعلني اعني ان الامر ليس على هذه الدرجة من البساطة ...
ثم وصلت رائحة الحريق الى أنفي حتى قبل ان ارى الدخان ...
وركض امين صارخاً : النار تشتعل في بيتك ...

هرعت نحو باب المطبخ . فتحت بابه . عجزت عن الخروج الى الحديقة لالقي نظرة
الى الاعلى فقد كانت كتل الاحجار ما تزال تنهار وتسقط على الارض وتتناثر في
الاتجاهات كلها ، وقد بدأت تحتلط بأشياء ملتهبة تهوي على العشب لتتابع احتراقها ..
ركضت الى السلم ، وكالمجنونة بدأت صعودي ... لكنني عجزت عن تجاوز حدود
الطابق الثاني .. وشاهدت ألسنة النار تتدفق من فجوة بجدار الممشى حيث كانت تغطي
الجدار رفوف مليئة بالكتب ... كان واضحاً ان اكثر من قنبلة قد اخترقت الجدار ،
وفي المكان الوحيد الذي كنت اتوهمه آمناً (نسيياً) ، وفي الجدار الذي كنت اسند
ظهري اليه حين يشتد القصف ، وآوي اليه واسميه (مقري الحربي) ! .. للنار هسيس
موحش ... انها تأكل كل شيء ، وصوتها كصوت اسنان وحشية تقرض كل ما يعترض
طريقها ، وحنجرة جهنمية تبتلع كل شيء ... آه مكتبي ! ...
وركضت من جديد على السلم ، وقررت الالتفاف حول البيت لارى هل تنبعث

النار منها ... تحققت اعظم مخاوفي : شاهدت الفائض من النار يخرج من نوافذها ، ووعيت في لحظة بؤس لا حدود لها : مكتبي تحترق ! .. وفي لحظة بؤس اخرى وعيت : الجدار الذي انهار هو جدار المكتبة المطل على الحديقة الخلفية ، وكتل النار المشتعلة المتهاوية كالشهب ، هي ببساطة : كتي !

من جديد عدت أركض على الدرج كالمجنونة ، أفكر بطفاية الحريق الصغيرة ... كمن يحاول ايقاف انهيار منجم بحطبة .. كمن يحاول الصعود الى القمر على دراجة ... كمن يحاول النجاة من البحر الهائج الذي سقط فيه بركوب عود ثقاب . هكذا كنت وأنا أرتقي درجات السلم نحو بيتي .. هذه المرة لم أستطع حتى الوصول الى الطابق الثاني ... كان الدخان يغطي كل شيء ، واحترقت عيني وريثاي وبدأت أسعل بشدة وتهاويت على السلم وتدحرجت على الدرجات الباقية ، وزحفت حتى مدخل الحديقة أحاول استنشاق الهواء النقي نسبياً ... ثم نهضت من جديد ، وقد قررت محاولة الدخول الى بيتنا عن طريق سلم الحريق الحديدي الذي يدور كالحلزون ملتصقاً بجدار البيت من الناحية الخلفية ... تذكرت القناص ولم أبال ، كانت صورة الحريق تملأ عيني ، ورائحته تملأ حواسي وتعطلها ، وحتى حاسة الخوف أو الحذر تلاشت نهائياً ، وها أنا أركض كالمجنونة الى الحديقة ، أنا التي لم أتجرأ منذ ساعة على الخروج ولو لثوان لا لتقاط المسدس عن أرضها .

ما تزال الأحجار والكتل المشتعلة تهوي الى الحديقة ، وقد انقلب برميل القمامة وشبت النار بجثة العم فؤاد .. ورغم سحب الدخان المروعة استطعت أن أميز رائحة احتراق اللحم البشري الخاصة والنفاذة ، أما جثة الخادم فقد كانت ما تزال بعيدة نسبياً عن مرمى سقوط كتل النار — حتى الآن على الأقل ...

وفيما أنا أتسلق سلم الحريق ، كنت أعرف أنه لا حاجة بي للخوف من القناصين .. كان الدخان قد أضحى كثيفاً ، على نحو كاف لضرب ستار يحجبني .. فهل يخنقني ؟ وهل يحميني من الموت بالرصاص لموت مخنقة ؟ . صوت أمين يصرخ من الأسفل : عودي يا مجنونة .. ستحترقين ..

وكنْتُ أفكر بأوراقي ... وكتبي ... وفي لحظة واحدة انزلت أمام عيني مئات من عناوين الكتب التي جمعتها من أنحاء العالم كله ، ودفعت ثمناً لها بدلاً من ثمن الخبز

والثياب .. لكنني لم أكد أصل الى قمة السلم حتى استقبلتني النار التي كانت تنبعث أيضاً من نوافذ المطبخ وبابه وتنج أجيجاً مفرعاً .. كان فتح الباب بمثابة القذف بنفسي في أتون مذهب الاندلاع ...

وعاودت هبوط الدرج وقد بدأ الدوار يساورني وطنين مزعج يدوي أجراسه في أذني ، كان جسدي يقرع صفارة الانذار الأخيرة ... وحين عدت الى الحديقة ، كان علي أن أبتعد حتى أقصى حدودها لأن جدار المكتبة كان قد بدأ انهياره ومثل سائل بركاني كانت نيرانه تنقذف الى البعيد حارقة أغصان النخلة ومستقرة فوق جثة الحادم التي بدأت بالالتهاب ..

كل شيء ضدي هذا الصباح ... الشمس ترقب ما يدور بعين باردة حيادية ، والريح تساهم في امتداد النار بشكل مثالي ! ..

يا إله المطر ، لماذا لا تمر الآن ببيتي وقلبي ؟ .. يا إله المطر ، أرسل سحبك وارحم هذه السطور المكتوبة بدموع العيون التي يتوهمونها حبراً ...

ركضت الى الداخل وقد تأكدت من استحالة قيامي بدور رجل الاطفاء ... وركضت الى الهاتف ممنية نفسي بحضور رجال الاطفاء ، لكن (لا حرارة) في الهاتف ... والخروج من البيت لطلب نجدة يعني الموت بالرصاص خلف العتبة ... عدت من جديد الى السلم الداخلي للبيت ، وهذه المرة كان مجرد تجاوز العتبة مغامرة تودي بي الى الاختناق ...

لكنني التقطت عن الأرض المسدس الذي سقط من صرة (الغربان) ... وعدت الى الداخل في محاولة جديدة للاتصال بالعالم الخارجي ... لكنني كنت أعرف : حتى لو اتصلت برجال الاطفاء فإنهم لن يحضروا الى هنا ، حيث قلب المعارك ... وانهم لو حضروا ، لأطلق الرصاص عليهم ولعجزوا عن اخماد الحريق ...

ارتيمت على مقعد . تركت ذراعي يسقطان كمجداني قارب محطم ... لم يكن هنالك ما أفعله سوى الانصات لسعير النار ، وحدة تأججها ، وكنت من موضعي أستطيع أن أراها وهي تلتهم كتبي النادرة ، وما علقت على جدرانها من لوحات لغسان كنفاني ورافع الناصري وفاروق البقيلي . ثم تتابع رحلتها الى بقية الجدران لتأكل لوحات عفيف صيداوي ونعيم اسماعيل وعارف الرئيس ومن هناك تنتقل الى غرفة أخرى فتلتهم لوحات

نوري الراوي ولؤي كيالي ورفيق شرف ونذير نبعة ومصطفى فروخ ويونس الابن و ...
ولا أريد أن أتذكر أكثر من ذلك ...

انفجار في الأعلى . لعلها قارورة الغاز في الحمام . اذن وصلت النار الى هناك ...
آه لو أن النار التي تطهر حين تحرق تميز بين ما تحرقه وما تتركه ... آه لو كان للنار
عيون ، إذن لدمعت وهي ترى كل هذه الأشياء القبيحة .. كل لوحة قطعة من انسان ... آه
كم من رفيقة ورفيق تحترق أجزاء من روحهم الآن هناك ، ممزوجة بأجزاء من روحي ...
آه لماذا النار كالقطعة ، لا تميز أولادها من سواهم حين تباشر أكل وجبتها الدسمة ؟ ...
دخل أمين مرتاعاً : بيتك بأكمله يشتعل ... أخشى أن يمتد الحريق الى المبنى
كله ...

وفكرت : ذلك الوغد . مكتبي لا تهمة . تحفه وحدها تقلقه . ناري لا تهمة المهم
ألا تمتد اليه ! أفيرى أحد سحب الحريق ويأتي لنجدتي ؟ هل يجرؤ أحد على الاقتراب ؟
اطفاء ؟ سيارة اسعاف ؟ هل يكون حريق البيت وسيلة لنجاتي ؟

تذكرت رواية (هتشكوكية) قرأتها منذ أشهر ... تتحدث عن عجوز مسنة في
بيت منزل ، يتأمر ابنها وزوجته على قتلها طمعاً بميراثها ، ويهتمان بالقتل باعطائها
جرعات نخاطئة من الدواء ، بعد قطع الهاتف عنها ومنعها من كل اتصال خارجي .
ويسقط في يد العجوز ماذا تفعل ؟ ليس أمامها الا أن تحرق بيتها فيرى أهل القرية البعيدة
سحب النار والدخان ويحضرون .. وتنجو ..

فهل تكون مكتبي قد احترقت قرباناً على مذهب نجاتي ؟ هل يأتي أحد ؟ هل يحدث
شيء ؟ ..

من الواضح أن القتال مستمر كأن شيئاً لم يحدث ... وحريق اضافي آخر لن يغير في
مسيرة القذائف أو الأصابع المشدودة على الزناد ...

ومع ذلك ، فقد خرجت الى الباب الخارجي ، يحدوني أمل غامض ... وفي أعماقي
شهية الى تفجير الأوضاع القابلة للانفجار ، حتى ولو كانت قذيفة في البيت الذي
يؤويني ...

أمين يدور حولي بعصية ، يتأمل كنوز الأسرة ويقول : يجب اطفاء الحريق ...
والا امتد الى البيت بأكمله .. ألا تظنين ذلك ؟ أم تعتقدين أنه سينطفئ متى التهم كل ما

في بيتكم ؟ .

قلت له الجواب الذي يشتهي سماعه : بل سينطفئ متى التهم كل ما في بيتنا ! ...
ثم التمع في رأسي خاطر : لا بد أن النار امتدت الى الأعمدة الخشبية العتيقة التي
تحمل القرميد ، وبالتالي الى براميل الماء العشرة الموجودة هناك ... وانفجارها سيجعل
نهرآ من الماء يتدفق ... وقد يطفئ الحريق .. أم أن البراميل قد فرغت ما دام الماء قد
انقطع ؟ كم هي فقيرة معلوماتي البيتية !! ...

كانت غيوم كثيفة قد جاءت مع الريح التي ساعدت في اشعال الحريق ... طوال
الساعات الأربع التي مضت على اشتعال النار ، كانت الشمس تتأمل ببرود حيادي ما
يدور ... أما الآن ، فهي هي السحب الكثيفة تستعيد مواقعها التي لم تغادرها طوال الأيام
السابقة ، وها هو رذاذ داعم يتساقط .

قلت لأمين : اذا انفجرت براميل المياه تحت القرميد ستخمد النار حتماً لأنها
ستنصب فوقها من الأعلى ... هذا بالاضافة الى المطر ..

— هذا معناه أن نموت في الغد عطشاً . قلت : هذا خير من الموت حرقاً .

لا أدري في ما كان يفكر أمين أبالموت حرقاً أم بالموت عطشاً ، أم انه كان يتأمل
في كنوز والده التي صارت الآن ملكاً له ، والنار تهدد بالتهاهما ولما تنفض على امتلاكه
اياها ٤٨ ساعة ! ..
كان أملاً خاطئاً .

ردة الفعل التي أثارها الحريق ، هي هرب قطط الحديقة ، وانفراج بسيط لا يكاد
يذكر في نوافذ بعض الجيران في الرصيف المقابل ، ولا ريب في أن عيوناً فضولية
تنتطلع الآن منها ، ترقب الحريق ، دون أن تجرؤ على فتح النافذة تماماً ، لترى بوضوح
أكثر ، ورؤوس تشهد بهلع قدرة النار على الانتشار وتحمد الصدف أو الله لأن القذائف
لم تستقر في جذرائها هي ، والنار لم تخرج ألسنتها من نوافذها هي .. اذن ما زال الجميع
في أعفاسهم الأليفة . حتى حيوانات الدكان التهمت جلادها .. ونحن ؟ متى ؟

* * *

كابوس ١٦٣

أقلب المسدس في يدي .